الحمد لله هذه حياتي



للإمام
الدكتور/ عبد الحليم محمود

المكتبة التوفيقية

مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية

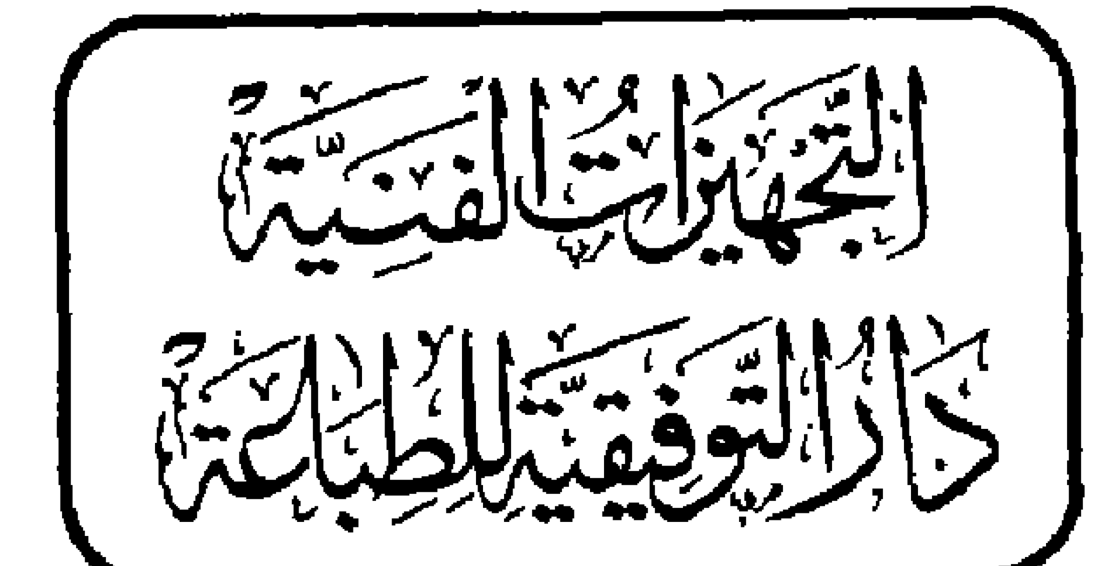
مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية



للإمام
الدكتور/ عبد الحليم محمود



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠



المكتبة التوفيقية

القاهرة مصر
العنوان: امام الباب الاخضر سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : in front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957
shalan@eltawfikiapress.com

إشراف
توفيق عفاري

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ والصّلاةُ

والسلامُ على أشرف المرسلين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

﴿ رَبَّنا آتِنا مِنْ لدُنْكَ رَحْمَةً

وهَيِّئْ لَنا من أمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

مقدمة

فى مساء الثلاثاء - الثالث والعشرين من شوال سنة١٣٩٥هـ الموافق الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٧٥م - كنت فى طريقى إلى الهند.

وبينما كانت الطائرة تحلق في الأجواء - كان تفكيرى كله يحلق فى جو: «الحمد لله»!

لقد أخذت أسباب الحمد - فى حياتى - تتوالى على ذهنى:

أستعرضها الواحد تلو الآخر، ملاحظًا لطف الله - تعالى - الخفى، ولطفه - سبحانه - الظاهر!

الطائرة تسبح فى فضاء الله الواسع وأنا منغمس بخيالى فى لطائف «الحمد لله»، وفى إمداد الله تعالى لى بالنعم!

وبينا أنا فى هذا الاستغراق لمع فى ذهنى خاطر..

أليس من شكر الله تعالى - على ما أنعم - أن أعترف فى كتاب بفضله ونعمه؟ وأن أضمِّن هذا الكتاب خلاصة ما هدانى الله تعالى إليه، من آراء بثثتها فى مختلف الكتب، والمقالات والمحاضرات؟

إن تاريخ كل إنسان ملئ بالفوائد.

قد تكون حوادث حدثت، أو آراء قيلت.

إنها ماديات ومعنويات، وهى أشكال تمر، وظواهر لها وزنها وهى تجارب وملاحظات قد يفيد منها الآخرون، أو يروِّحون على أنفسهم بقراءتها، ويمضون أوقاتهم فى تسلية لا تكون مضيعة للوقت.

وفى فضاء الله الواسع، وبينما كانت الطائرة فى سيرها السريع نحو الهدف، كنت أنا بين القلم والقرطاس أخطط لمنهج الكتاب!

وأذكر أن الرئيس«ابن سينا» حينما كان يعزم على تأليف كتاب: كان يعتكف - يومين أو ثلاثة فقط - اعتكافًا كاملاً، أو شبه كامل، ويأخذ فى وضع عناوين للأجزاء؛ جاعلاً لكل جزء دفترًا، ثم يأخذ فى وضع عناوين للأبواب - فى ثنايا الأجزاء - ويترك فى الدفاتر فراغًا بين الباب والباب، ثم يأخذ فى وضع عناوين الفصول فى الأبواب تاركًا فراغًا بين كل فصل وفصل، بما يقدِّر أنه يكفى للفصل، ثم يأخذ فى وضع إشارات سانحة لما عساه أن يكون فقرات. ثم يخرج من معتكفه معتبرًا أن ما بقى من الكتاب إنما هو تشطيبه فحسب وأنه فى الوضع«السينوى» قد انتهى من تأليفه. وبعد ذلك يحمل معه الكتاب أينما سار.

فيكتب - بحسب الظروف - كلمة هنا، وكلمة هناك: فى هذا الفصل، أو ذاك، من أواخر الكتاب، أو من منتصفه، أو من أوله بحسب الفكرة المواتية!

وانتهى اعتكافى، وقد أوشكت الطائرة على الوصول إلى الغاية.

وحملت التخطيط معى.

وفى صباح الاثنين - السادس من ذى القعدة سنة١٣٩٥هـ - الموافق للعاشر من نوفمبر سنة ١٩٧٥م - تذكرت التخطيط بعد صلاة الفجر فى«مدراس» من بلاد الهند، فأخذت القلم وجلست فى شرفة الفندق، وبدأت أكتب!

وقد علمتنى التجارب الماضية فى التأليف أن طريقة «ابن سينا» - مع بعض التعديل بالنسبة لى - من خير الطرق:

فالإنسان تختلف استعداداته، وتختلف إمكاناته، من آنٍ لآخر، ومن الخير أن يعمل - فى مختلف الظروف، العمل الميسور له.

ولقد كان «ابن سينا» يكتب، لا يستند إلى هذا المرجع أو ذاك:

ينقل منه، أو يعزو إليه.

أما أنا؛ فقد كنت أحتاج دائمًا إلى مراجع.

وهذه المراجع أراجعها، وأضع - بين قوسين - المهم منها، ثم ألتمس نقله، فى قصاصات من الورق.

ويتجمع عندى مئات من هذه القصاصات: فأرتبها فصولاً، ثم أرتب الفصول ترتيبًا متواليًا.

ثم أرتب قصاصات كل فصل.

ثم أكتب لا ألتزم ترتيب الفصول الذى وضعته.

وربما بدا لى بعد الفراغ من الكتاب أن أحدث تغييراً فى ترتيب الفصول.

وقد يتساءل القارئ عن استخدامى للقصاصات فى كل فصل؟

وما كان استخدامى لها إلاَّ لإنارة الطريق فى تفكيرى:

فقد تكون القصاصات موضع نقد!

وقد تكون موضع إهمال.

وقد تكون موضع استئناس لما أرى.

وقد أوردها لأستنتج منها جواً كان يعيشه المؤلف الذى أكتب عنه، أو لأستنتج منها فكرته.

ولا بد - فى كل الأحوال - من أن يعزو المؤلف النص إلى قائله.

ولكن هذا الكتاب الذى بدأته - بتوفيق الله - لا أحتاج فيه إلى هذه العملية - عملية القصاصات والمراجع - فى استفاضة.

إنه سرد لحياتى، يسير معها فى تتابعها.

وهو ليس سرداً لحياتى المادية فحسب. إن هذه الحياة المادية لم تأخذ منه إلا حجمًا ضئيلاً.

إنه تاريخ لحياتى الفكرية على الخصوص.

وهو خواطر تمر فى أثناء الكتابة.

وهو محاولة لبيان بعض الزوايا من آرائى، وكتبى الماضية.

أضعها مرة أخرى بين يدى القارئ، لما أرى لها من أهمية خاصة. إنه قصة فكر قبل أن يكون قصة حياة.

قصة فكر، حاول صاحبه أن يصل جاهدًا إلى الصراط المستقيم، وأن يشرح ما وصل إليه للناس. وقد تعمدت الاستطراد تعمدًا، وذلك لأنشر هذا الرأى أو ذاك، مما آمنت به، سواء أنشرته من قبل، أم لم أنشره، ويمكننى أن أقول:

إنى أعيد فى هذا الكتاب تقييم حياتى.

أعيد هذا التقييم لنفسى بعد أن عشت هذه الحياة.

وأعيده للناس عسى أن يكون لهم فى حياتى بعض ما يأخذونه، أو يكون لهم فيه مصدر للتأمل، والتفكير.

والله أرجو أن يجعله مفيدًا لكل من قرأه، إنه سميع قريب مجيب.

ربع قرن

من حياتى..

تلميذاً

الفصل الأول

عن الحمد

ولا مناص من أن أفتتح الكتاب بفصل عن الحمد :

الحمد لله رب العالمين:

إن الحمد الذى افتتح الله به الفاتحة، أى افتتح به القرآن الكريم، مشيرًا إلى العلة - وهى التربية التى من شأنها أن تهذب، وأن تسير بالمربَّى نحو الكمال - التربية أو السير نحو الكمال لكل عالَم، لجميع العالَمين - . . . . شعار المؤمن الصادق.

«الحمد لله رب العالَمين».

الحمد لله المربِّى لجميع العوالِم، السائِر بهم نحو الكمال بحسب استعداد كل، واستجابته. ومن أجل ذلك، بل من أجل كماله سبحانه فى نفسه، كان له الحمد فى السموات والأرض.

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٨].

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٦].

وكان له الحمد فى الأولى والآخرة.

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٧٠].

ومن أجلِّ أنواع الحمد، وأرقها، وأرقاها، وأنفسها: الحمد الذى ينبعث من نفس الإنسان، من أجل كمال الله سبحانه، وقد وردت فى القرآن الكريم نماذج لذلك.

يقول الله تعالى:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١].

ويلى ذلك الحمد على نعمة الهداية، وعلى إنزال مصدرها ومنبعها:

«القرآن الكريم».

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف: ١].

ثم الحمد على النعمة العامة:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١].

ثم الحمد من أجل النعم الخاصة. والنعمُ الخاصة كثيرة، متعددة، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨].

وقد أسبغها الله علينا ظاهرة، وباطنة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

وكلها - بدون استثناء - من الله.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

من أجل ذلك أمر الله سبحانه بالحمد عند كل نعمة:

﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

واستجاب للأمر من استجاب:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥].

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿ ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤].

بل هو آخر دعاء أهل الجنة:

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]..

الحمد لله: إنما تملأ الميزان، كما ورد فى حديث «أبى مالك الأشعرى» فيما رواه «الإمام مسلم». قال رسول الله ﷺ: **«الطُّهور شطرُ الإيمان، والحمدُ لله تملأُ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن، أو تملأ ما بين السموات والأرض»**.

وبعد فعن رسول الله ﷺ. فيما رواه الشيخان، - قال: **«من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، فى يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان، يومه ذلك، حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا رجل عمل أكثر منه»**.

وقال: **«من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة، حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»**.

وذكر ابن عطية:

روى أنس بن مالك أن النبى عليه السلام قال: **«للحمد لله رب العالمين، فضل ثلاثين حسنة على سائر الكلام»**.

وورد حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: **«من قال: لا إله إلا الله كتب له عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله رب العالمين كتب له ثلاثون حسنة»**.

وهذا الحديث هو فى الذى يقولها من المؤمنين مؤتجراً طالبًا ثوابًا، **لأن** قوله: الحمد لله رب العالمين فى ضمنها: التوحيد الذى هو معنى لا إله إلا الله، **ففى قوله**: توحيد وحمد وفى قول: لا إله إلا الله: توحيد فقط.

فأما إذا أخذا بموضعهما من شرع الملّة ومحلهما من دفع الكفر والإشراك، فلا إله إلا الله أفضل، والحاكم بذلك قول النبى ﷺ.

«أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله».

وعن أبى أيوب رضى الله عنه قال: قال رجل عند رسول الله ﷺ: **«الحمد لله حمداً كثيراً طيبًا مباركًا فيه»**، ورأى أنه قد هجم من رسول الله، ﷺ، على شىء يكرهه، فقال رسول الله، ﷺ: **«من هو؟ فإنه لم يقل إلا صوابًا»**.

فقال الرجل: أنا قلتها يارسول الله، أرجو بها الخير، فقال: **«والذى نفسى بيده، لقد رأيت ثلاثة عشر ملكًا يبتدرون كلمتك، أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى؟»**.

رواه ابن أبى الدنيا، والطبرانى، بإسناد حسن، واللفظ له، والبيهقى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أول من يدعى إلى الجنة، الذين يحمدون الله عز وجل فى السراء والضرّاء»** رواه ابن أبى الدنيا، والبزار، والطبرانى.

«الحمد» معناه الثناء الكامل، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد؛ وهو أعم من الشكر، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يسدى إلى الشاكر وشكره حمد ما، والحمد المجرد هو ثناء بصفات المحمود من غير أن يسدى شيئًا، فالحامد من الناس قسمان: الشاكر، والمثنى بالصفات.

وأخيراً.. فإنه ينبغى - متابعة للنسق القرآنى - أن يفتتح المسلم كل عمل من أعماله الخيرة بقوله: «الحمد لله».

وأنا أبدأ فى هذا الكتاب«الحمد لله» وأسير فيه مردداً:

«الحمد لله» وحينما أنتهى منه فإنى أتابع أهل الجنة:

﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾.

الفصل الثانى

البيئة

و

النشأة

الحمد لله.. هذه حياتى

حياتى

كلما تذكرت حياتي. . ماضيها البعيد كما وعيته، وسيرها المتتابع كما واجهته، وحاضرها الراهن كما أعيشه، قلت: الحمد لله.

وما من شك، فى أنه مرت بى ظروف، اعتقدتها - فى أثناء - حدوثها مريرة، ولكنها كانت فى حقيقتها حلوة.

﴿**وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم**﴾.

ومرت بى ظروف تألمت لها. . . ولكن: من الذى سارت به الحياة دائمًا - رخاء؟

وإذا خُيِّرت الآن - وقد تخطيت الخامسة والستين - فى الحياة التى أتمناها، لم أختر سوى حياتي، التى عشتها، لم أختر سواها فى جملتها[1] لقد ولدت فى صحة لا بأس بها؛ أما من الناحية الجسمية فإن الله سبحانه وتعالى قد عافانى من التشويه فى الجسم جملة، وفي الجوارح كذلك: العينان سليمتان وسمع الأذنين عادى.

وهكذا لا شذوذ - إفراطًا ولا تفريطًا - وعافانى - وله الحمد - من السِّمْنة، ومن النحافة، وجعلنى وسطًا بينهما - وله الحمد - وعافانى من الطول والقصر، وجعلنى وسطًا - وله الحمد - وعافانى من البياض الأشقر، ومن السمرة الداكنة - وله الحمد - ولم أُصب في هذه السنوات الطويلة، التى مرت بى، بمرض خطير، ولله الحمد والمنة والفضل.

وإذا جئت - الآن - إلى الذكاء، والعقل، والاتزان، فإنى أحسب أننى - فى كل ذلك - وسط.

وأشهد أننى لست حاد الذكاء؛ فكم رأيت من هم أذكى منى، وعدم الحدة فى الذكاء، كان له نتيجتان:

---

(١) لقد سبق أن كتبت ما يلى: (لو استقبلت حياتى ما استدبرت لما اخترت حياة أخرى).
ولقد وقفت فى فترات كثيرة على مفترق طرق، وكان بعضها براقًا وكان الله سبحانه وتعالى يختار لى: فالحمد لله.

النتيجة الأولى:

أننى كنت فى عجز يكاد يكون تامًا عن الفهم - فى الوقت المناسب - لما كان يدبر لى، من مكر، ومن مكائد، ولما كان يحيط بى أحيانًا، من جو مشحون بالخبث والدهاء.

إن بعض الناس يسعده أن يسئ إلى الآخرين، وأسباب ذلك تتعدد وتختلف: منها الحسد، ومنها ضعة النفس.

إنه لضعة نفسه يحب أن ينزل بالآخرين - أخلاقيًا - حتى يكونوا فى مستواه من الضعة، أو أن ينزل بهم - لرفعتهم فى المجتمع - حتى يرتفع هو إلى مكانتهم أو يرتفع - فى زعمه - فوق رفعتهم، أو ينزل بهم إلى مستوى أقل، . . . . إلى مستواه هو.

ويأخذ - بذكاء إبليس - يدبر المؤامرات والمكائد، ويشيع ما ليس صحيحًا، ويلفق، ويعيش فى جو من الباطل طيلة حياته.

هل تدبرت قصة إبليس وإغوائه لآدم؟ لِمَ أغواه؟ ولكن يحسن أن نتحدث فى شيء من السعة عن القصة؛ ففيها عظة، وفيها عبرة.

إبليس والإفساد

عصى إبليس ربه تعالى، وكان من الممكن أن يتجه إلى الله سبحانه بالتوبة الصادقة، فينال العفو والمغفرة، ولكنه عاند، ولجّ فى عناده، وطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون، ليغوى بنى آدم . .

وكانت معصيته:

١- حسدًا.

٢- وكبرياء.

٣- وضعة.

وهذا يشعر بأن عبادته التى كان يستغرق فيها مع الملائكة، كانت زهواً، وخيلاء، ولم تكن خالصة لوجه الله تعالى:

وظهر إبليس ـ بالمعصية ـ على حقيقته: حقوداً، حسوداً، متكبراً، وضيعاً.

فطرده الله من رحمته..

وبدأ إبليس الإفساد.

وذهب إلى آدم وحواء عليهما السلام، وأخذ يوسوس لهما بالأكل من الشجرة التى نهاهما ربهما عنها..

لقد كان آدم عليه السلام طاهراً نقيًّا، صافيًا زكيًّا، وكان فى هذا الطهر، وهذا النقاء، يعتقد أن الكائنات هكذا خلقوا.. طاهرين أصفياء.. فلما وسوس إليهما إبليس، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين..

وأتاهما من موطن الضعف فى الإنسان، قائلاً:

﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾..

صدّقاه، وأكلا من الشجرة، ودخلا فى جو الإثم بذلك والمعصية..

وما أراد إبليس بذلك، إلا أن ينزل بالطهر والنقاء، إلى جو الفساد والإثم، وما كان له من هدف إلا أن ينزل بالشرفاء الأصفياء إلى مستواه هو...

ولكن الله تعالى أخلف ظنه..

فقد اتجه آدم وحواء إلى الله بالتضرع، والتوبة، وقالا:

﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

وكانت النتيجة:

﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾.

ورد الله كيد الشيطان إلى نحره، وجعل كيده ينقلب حسرة منه على ما فاته من إغواء آدم إغواءً أبديًّا. ولا ريب أن كل من فوض أمره إلى الله فإن الله تعالى يرد

كيـد الماكرين به إلى نحورهم، ولقد عـصمنى الله تعالى ـ وله الحـمد ـ من أن أنزلق إلى مسـتوى الماكرين؛ فقـد كان سبـحانه وتعالى رءوفًـا بى فى كل الظروف، ولقد اتخذت التفويض شعاراً لى فكنت أكرر:

﴿ وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ .

يقول الإمام «جعفر الصادق»، ﷺ:

«عجبت لمن ابتلى بالمكر، كيف يغفل عن:

﴿ وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ .

والله سبحانه يقول:

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ .

وكان الله تعالى يقينى سيئات ما مكروا، ويرد كيد الكائدين إلى نحورهم، وله الحمد.

أما النتيجة الثانية:

وهى نتيجة أوحت بها آثار النتيجـة الأولى؛ فهى أننى ـ وقد اشمأزت نفسى من الذين أقامـوا حياتهم علـى المؤامرات والمكر، لم ألجأ إليـها، ولم أحاول أن أقـترب منها: إننى أعترف ـ صادقًا ـ أننى لم أدبر تدبير مكر فى حياتى، ولم أدبر تدبيرًا سريًا ضد أى كائن.

ولقد كنت واضحًا دائمًا، وإذا أردت أمرًا فعلته مكشوفًا لا أُسر فيه.

السرية المعلنة

ومسألة «السرية المعلنة»ـ إذا صح هذا التعبير ـ فى حياتى، لا ترضى بعض الذين يحيطون بى.

فى يوم من الأيام ـ وقد كنت ـ إذ ذاك أمينًا عامًا لمجمع البـحوث الإسلامـية ـ أخـذ المحـيطون بى يتـحـدثون عن السـرية، وينصـحـون أن أسـتـخـدم الأغـلاق والمفاتيح(لأدراج) المكتب، على هيئة معينة، مخصوصة، وألحوا، واستجبت.

ورتبت الأمــور، فى(الأدراج) على مـا أرادوا، وتثـبـت من المفــاتيح، ومن أن(الأدراج) قد أغلقت، وسارت الأمور على ما يشتهون.

وانتـهى العمل، وخــرجت، وعندما وصلـت إلى البيت، تذكـرت أننى تركت المفاتيح فى(الأدراج). . . .

وعندئذ عدت إلى طبيعتى: لا سرية فى حياتى.

أتعرف العالم الكبـير «النظام» إمام المعتزلة فى عصـره؟ يروون عنه. . أنه كان أضيق الناس صدراً بسر، وأن صدره كان يضيق أكثر، كلما كان التأكيد عليه بالسرية أكثر.

ولما كان يقال له عن ذلك، كان يجيب:

إننى لست حريصًا على كتمان هذا السر، بمقـدار حرص صاحبه عليه، وإذا كان صاحبه قد أفشاه لى فليس علىّ من حرج، فى أن أقتدى به فى الإفشاء.

كان «النظام» يذيع أسراره فيـما يتعلق بنفسه، أو بتعبـير آخر، لم يكن له سر، وهكذا كان بالنسبة لكل سر.

ولكننى لا أقتدى «بالنظام» فى إفشاء أسرار الآخرين، فليس «النظام»ـ فى إفشاء الأسرار ـ قدوة، لا ولا قلامة ظفر. وإذا كنت قـد ضربته مثلا للرجل الواضح؛ فإنه لا يقتدى به فيما يخالف الجو الإسلامى، والجو الإسلامى يحرّم إفشاء الأسرار، إنها أمانة، والأمانات لا تعطى للغير وإفشاءها خيانة.

والإسـلام يعلن أن من صـفـات المنافق. . أنه إذا اؤتمن خـان، وبالتـالى؛ فـإن المؤمن، إذا اؤتمن وفّى.

وأعود إلى حياتى من جديد. .

إننى وإن كنت غير حـاد الذكاء، فإنى أيضًا لست قـوى الذاكرة، ولكننى أقول ـ فى غـير فـخر ـ إنـى لست بليدًا، ولقـد كـان ترتيبى دائـمًا فى الدراسـة فى أوائل المتوسطين، وهو ترتـيب أحمد الله تعالـى عليه وفيـما يتعلق بالاتزان، فـيكفينى أن أقول! إننى لست «متزمتًا»، وليس بى جمـود وإذا نظرت إذن إلى الناحية الجسمانية، العقلية، فلا يسعنى إلا أن أقول «الحمد لله».

النشأة

ونشأت ـ والحمد لله ـ فى أسرة ميسورة، إنها من هذه الأسر التى يقال عنها «أعيان الريف».

لم تكن أسرة واسعة الثراء، ولم تكن فقيرة، وإنما كانت ميسورة.

وكان نجم الأسرة اللامع هو والدى. كان رجلاً مكتمل الرجولة. كان مكتمل الرجولة فى أخلاقه، إذا عاهد وفّى، وإذا قال صدق، يكرم الضيف، وكان مشهورًا بالكرم، ويعطف على الفقراء، ويتصدق عليهم، وكان جاره يأمن بوائقه. يساعد فى الملمات، بماله، وبرأيه.

وكان ذا رأى سديد، يلجأ إليه الناس يستشيرونه فى أمورهم، ويحكّمونه فى قضاياهم.

وكان صاحب دين يحرص على عدم الإخلال به، ويحرص على أن تلتزمه الأسرة: لقد كان على خلق كريم ولا تُستغرب هذه الصفات من رجل من النسل الشريف الطاهر: إنه حسينى، يمتاز بما يمتاز به آل البيت، من خلق الشهامة والمروءة والكرم والتزام الحق...

درس فى الأزهر فترة طويلة من الزمن، حضر فيها على كبار الأساتذة، من بينهم «الشيخ محمد عبده» وقد... رأيت له بعض الملخصات من دروس التفسير للشيخ «محمد عبده» وقد قارنتها بموضوعاتها فى تفسير المنار، فوجدت توافقًا فى المعنى، ولم يمنعنى من نشرها، إلا أنها كانت متناثرة، ولما طال بها الزمن، وتقلبت بها الأحوال زادت تغيّراً.

وإنه ليكفينا فى هذا المجال ما حبّره قلم المرحوم «الشيخ رشيد رضا».

وكان يتحدث عن بعض أساتذته بصورة جميلة، تحبب الإنسان فى الأزهر، وجوّه، وعلمائه.

ويتحدث عن زملائه، فى صورة من المودة، والحب، تجعل الإنسان يحبهم.

ولو خيرت ما اخترت به بديلا.

ولو خيرت كذلك بالنسبة لوالدتى ما اخترت بها بديلاً: إنها شريفة هى الأخرى، حسينية كذلك.

وقد وهبت حياتها ـ فى سماحة ـ لوالدى، ولأبنائها، ولم تأل جهدًا فى توفير الراحة لهم، وكانت كريمة بالنسبة للفقراء، والمساكين، تعطف عليهم، وتبرهم، وترسل إليهم من الطعام، والكسوة، ومما تثمر الأرض من خضراوات، وبقول، وفواكه.

رحم الله والدى، ورحم الله والدتى، وجزاهما خير ما يَجْزِى العاملين المخلصين.

﴿رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً﴾.

﴿رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحًا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين﴾.

وإذا نظرت إلى والدى فإنى أقول: الحمد لله. وإذا نظرت إلى والدتى فإنى أقول: الحمد لله.

تحديد النسل فكرة منكرة

وكان والدى ووالدتى كلاهما يحبان الإنجاب، ويحبان ـ على الخصوص ـ كثرة الذرية من الذكور.

إنهما لم يكونا من أنصار تحديد النسل، ولم تظهر هذه الفكرة المنكرة إلا فى العصور الحديثة، وأراد أنصارها تبريرها؛ فلجأوا إلى الحديث عن موضوع «العَزل»، وليس لموضوع «العَزل» بها من صلة.

إن موضوع «العزل»، مَثَلُه كمثل الامتناع عن النسل، بالنسبة للأم المريضة، التى يضرها الحمل.. أترى أن الامتناع عن الحمل بالنسبة للأم المريضة يأتى برهانًا فى

باب إباحة «تحديد النسل» هناك المرض الجسمانى. . إنه لا يتخذ حجة لإباحة تحديد النسل، وهناك الإرادة الحكيمة عند كثير من الناس، فى الحرص على شرف الأنساب، أو بتعبير مناسب، فى الحرص على صحة الأنساب، أى على ألا تكون الأنساب مريضة.

والغالبية العظمى، من الجوارى لا يعرف لهن أنساب، فأبيح «العزل» بالنسبة للجوارى، حرصًا على النطفة من أن تصل إلى خضراء الدمن، سواء كانت خضراء الدمن من الأحرار، أو من الجوارى.

يقول رسول الله ﷺ : «**إياكم وخضراءَ الدمن قالوا: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء فى منبت السوء**». وكانوا يعزلون تخيراً لنطفهم.

يقول رسول الله ﷺ : «**تخيروا لنُطفكم فإن العرق دساس**».

إن فى بنى البشر أناسًا يتطهرون، ومن تطهرهم أن يحرصوا على الفضيلة فى أنفسهم، ويحرصوا على أن يهيئوا جو الفضيلة لأبنائهم، قبل أن يولدوا، وبعد أن يولدوا، ومن هنا كان حرصهم على أن يظفروا بذات الدين، فإذا لم يتهيأ لهم ذلك فإنهم لا يجدون بأسًا فى الامتناع عن الإنجاب، حتى يهيئ لهم الله الجو المناسب للإنجاب، فإذا ما تهيأ الجو المناسب للإنجاب ـ وهذا ما نرجو أن يتنبه إليه المؤيدون لتحديد النسل ـ فإنهم ينجبون بدون حساب ـ شاكرين الله على نعمته، لا يحددون نسلاً، ولا ينظمون نسلاً، لا صلة إذن للعزل بموضوع تحديد النسل.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم، حين يطمئنون إلى شرف الجوارى لا يعزلون، كما حدث ذلك بالنسبة لبنات كسرى، وقد أنجبن الشرفاء، والنجباء.

هل سمعت عن أحد من الصحابة حدد النسل لضيق ذات اليد؟ أين إذن قول الله تعالى: ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾. .؟

وأين إذن: ﴿ **وفى السماء رزقكم وما توعدون** ﴾. .؟

ثم القسم الإلهى على ذلك.

﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾.

ويلجأ أنصار تحديد النسل دائمًا، إلى رقعة الأرض المصرية المزروعة، ويحددونها (بالمتر) (والسنتيمتر) ويحددون ما تكفيه هذه الرقعة من أفواه، ويحسبون ذلك بالعقل «الألكترونى».

وإنهم لمخطئون.

أولاً: لأن الصحـراء يمكن أن تُقْهر، وأن تُـذلل، وأن تصبح ثروة ضخـمة، لو وجدت الإخلاص لله، وللوطن، لو وجـدت رجالاً أذكياء، قـد تخلوا عن الخمول، لو وجدت رجالاً ينظرون إلى مصر، محبين لها، عاملين من أجلها.

وخذ أمثلة من كل قارة فى العالم فستـجد من زرعوا الصحراء بزراعات مناسبة، وتغلبوا عليها، إن أشجار الزيتـون مثلاً تصبر على الماء ثلاث سنوات، هل فكرنا فى زراعة الزيتـون؟ وليس فى أراضينا أرض لا ينزل فـيها المطر، لا صـيفًا، ولا شـتاء. ثلاث سنوات متوالية، إلا النادر المحدود؛ إن أقاليم «بتونس» لا تنزل فيها الأمطار إلا نادراً: لقد زرعـتها «تونس» زيتونًا، وأصـبح الزيتون فى تونس من المصادر الرئيـسية للثروة، ويسـتطيع خبراء الزراعـة أن يحدثوك عن إمكانات لا حد لهـا، فيمـا يتعلق باستثمار الصحراء.

هل قرأت كتاب «الصحراء ثروة وثورة»؟

إن مؤلفه يؤكد أنه من الممكن زراعة سبعين مليونًا من الأفدنة فى مصر.

لابد من أن ينتفض رجال مصـر انتفاضة مؤمنة بمصر، وبمستقـبل مصر، فيفكروا فى جد، وفى إخلاص، فى تذليل الـصحراء وقهرها، وفى الاسـتفادة بكل قطرة من مياه النيل، وفى طرق الرى الحديثة، وفى وسائل الإخصاب الزراعى الكثيرة.

وفى عصر مزدهر لمصر الزراعية.

ومع كل ذلك فإننا نقول مع القائلين المخلصين الصادقين..

إن الاتجاه فى مصر إلى الزراعة وحدها، قصور فى التفكير، بل هو قصور فَرَضَهُ المستعمر، ولم تتخلص منه للآن.

إن المستعمر أراد لمصر أن تقبع بين حدود معينة من الأرض الزراعية، لا تنطلق منها إلى بقية البقعة الأرضية الصحراوية، لتظل محدودة الدخل، محدودة الإمكانات، محدودة التأثير فى العالم، لا دور لها بين الأمم.

واستجاب عملاء الاستعمار فوجّهوا الأنظار دائمًا إلى خمسة ملايين من الأفدنة هى الأرض الزراعية فى مصر، وأعلنوا ألا مجال فى غيرها، وتركوا النيل يصب فى البحر، ووجه المستعمر إلى الزراعة فقط.

إن مصر - فيما رأى المستعمر - بلد زراعى، لا شأن له بالصناعة، وليست مصر بجوٍّ صالح للصناعة.

إن الصناعة تحتاج إلى مواد خام، وليس بمصر من هذه المواد الخام ما يفى بمتطلبات الصناعة.

واستجاب عملاء الاستعمار إلى هذا التوجيه، وأعلنوا - كما أعلن المستعمر - أن مصر بلد لا تصلح فيه الصناعة. وردّد عملاء الاستعمار هذا الإعلان، بحجة المستعمر. (ليس فى مصر مواد خام) وكل مصرى يعلم أن هذا كله باطل، وأن المواد الخام أو معظمها، موجودة بمصر، وأن مصر بلد صناعى، بمقدار ما هو زراعى، ومع كل ذلك فقد بدأ «البترول» يسيل شيئًا فشيئًا، وبدأت الآمال عريضة فى تيسير الله تعالى لتدفقه.

تحديد النسل!! إنها فكرة منكرة!!

وهى إذا اتخذت الأساس، ضيق ذات اليد؛ فإنها فكرة تخالف الدين، يحرمها الدين.

وأقولها بالصوت الجهير، وأكتبها بالخط العريض: إنها فكرة ليست فى مصلحة مصر.

ويمكن أن نقول مع «الدكتور على عبد الواحد» عـميد علم الاجتماع فى مصر: إن مشكلة مصر قلة النسل.

وعلى ذلك؛ فـإن ما ينفق على مـراكز تنظيم الـنسل، يجب أن ينفق على شىء نافع، ويجب أن تغلق هذه المراكز.

«اللهم إنى قد بلغت، اللهم فاشهد».

وأعود إلى ما انقطع.

عزبة «أبو أحمد»

ولدت فى «عزبة» أبى أحمد.

«وأبو أحمد» هو جدّ والدى.

وقد بنى جـدى هذه «العزبة» بيتًا، بيـتًا، وكانت مسكنًا للأسـرة، وأصلح جدى أرضها، فـدانًا، فدانًا، وتسمى الآن «قرية السـلام» تتبع «مركز» بلبـيس، وتبعد عن بلبيس بمقدار أربعـة كيلومترات. وتبعد عن القـاهرة بمقدار خمسة وأربعين كـيلومتراً تقريبًا.

يحدها شـرقًا الصـحراء الشـرقية. ويحـدها غربًا التـرعة الإسـماعيلـية. وبين الصحراء والترعة الإسماعيلية، خضرة ساحرة، هى الأرض المزروعة الخصبة، والعزبة على حافة الترعة الإسماعيلية.

موقع جميل، موفق «الحمد لله».

وأمام بيتنا حديقة صـغيرة، من أشجار الليمون والمانجو، تحفـها أشجار النخيل، يفصلها عن البيت جدول من المياه يسمى فى الريف عادة «الخليج».

لقد قضيت أيامًا من أجمل أيام حياتى فى هذه الحديقة، تحت شجرة ضخمة من أشجار الليمون. كانت كأنها خيمـة، تظللنا فى فراغها المتوسط، وتحنو علينا بأفرعها

وغصونها التى لا تصل إلى الأرض، ولا ترتفع رأسيًا. وكان للحديقة عبير منعش، وكان فيها جمال وهدوء. وكنت أقضى الصيف بأكمله تحت هذه الشجرة، كنت دائمًا فى شبه خلوة، ومع ذلك فإننى كنت فى «العزبة».

كنت أحمل الكتب فى أوائل الصيف، وأحمل «الفرش» المناسب، وأترك الكتب والفرش فى المساء، لأعود إليها فى الصباح، أقضى الساعات فى قراءة منوعة. تشرق علىّ الشمس وأنا فى الحديقة، وتغرب الشمس وأنا فى الحديقة، ولم يفصلنى عن هذه العادة فى الصيف إلا سفرى إلى «فرنسا». وإذا نظرت إلى المكان وما اكتمل فيه من حسن وبهاء فإنى أقول: «الحمد لله».

على أن هذه «العزبة» بجمالها ورونقها، تقع فى البقعة الأم.. «محافظة الشرقية» وإنى لفخور «بمحافظة الشرقية»: هذه المحافظة التى تتسم بطيبة القلب، وصفاء النفس، والكرم، ولو خيرت ما اخترت سواها، «والحمد لله».

جئت إلى الحياة على لهفة ـ من أسرتى ـ إلى الولد «الذكر» فقد سبقنى أختان، وأخ، استأثر الله به، فى طفولته المبكرة!

وكان الجو كله ـ كما أخبرونى ـ مشبعًا بالأمل والرجاء فى ولد ذكر وجئت!.

جئت فى جو من الترحيب ـ كما علمت فيما بعد ـ وترعرعت فى جو من الرعاية والعناية الفائقة.

فى الكُتَّاب

ولست أتذكر من طفولتى الأولى إلا أيامًا قضيتها مع أطفال القرية، ذكورًا، وإناثًا، فى «الكُتَّاب».

مازلت أتذكر هذا الجوّ من الاحترام، الذى كان يحيط بالقرآن الكريم، وبسيِّدنا، وبالكتَّاب.

كـان أطفـال القرية جـمـيـعًا فى هذه السـن المبكرة ـ التى تروح بين الرابعـة، والخامسة، والسـادسة ـ يذهبون إلى الكتّاب، ذكوراً، وإناثًا؛ ثم تتـفرق بهم مسالك الحياة، بعد ذلك، فيما بين الثامنة والتاسعة غالبًا.

أما بعضهم ـ القليل منهم ـ فإنه يواصل تعليمه. وأما الأكثرون فإنهم يذهبون إلى الحقل، بعد أن يكونوا قد أخذوا بحظ ـ لا بأس به ـ من حفظ القرآن الكريم.

وانتهت مرحلة الكتّاب ـ بالنسبة لى ـ بحفظ القرآن الكريم ـ ولله الحمد.

وكان يومًا مشهودًا: ذلك اليوم الذى خـتمت فيه القرآن الكريم. لقد كان والدى فى فرح غـامر، وكان البـيت كله فى بهجة وسـرور شاملين. وكانت حـفلة حافلة، بأطايب اللحم والثريد، ختمت بالذكر، شكراً لله تعالى.

أما سيدنا، فإنه قد ظفر بما لم يكن له فى حسبان مكافأةً له وتقديراً والحمد لله.

كانت سنى صغيرة على الالتحاق بالأزهر، وكان والدى يفكر فى أن يرسلنى إلى مكان ناء ـ نسبيًّا ـ لأتعلم فيه أحكام التجويد، ولكن حنان الأم، وحرص الأب على أن أكون تحت رعايته، حالاً بينى وبين تحقيق ذلك.

وياليتنى تعلمت أحكام التجويد صغيراً! ياليتنى!!

القرآن مصدر الهداية

ولابد هنا من كلمة إلى كل مسئول فى الدولة.

إن القرآن الكريم هو مصدر هدايتنا، وأساس نجاتنا، دنيا وأخرى، ومهما اختلفنا فى أمر من الأمور، فإننا لا نخـتلف فى النتيجة السعيدة، التى تـثمرها العناية بالقرآن الكريم، للفرد، وللأسرة، وللمجتمع.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

التى هى أقوم فى العقيدة.

والتى هى أقوم فى الأخلاق.

والتى هى أقوم فى التشريع.

والتى هى أقوم فى نظام المجتمع.

وإن من مفهوم الإيمان عند كل مؤمن، اليقين بذلك، ولا يختلف المؤمنون فى شىء من هذا أبدًا.

وتعاليم القرآن ـ فى كل زاوية من زوايا الحياة ـ هى الصراط المستقيم:

خذ مثلاً العلم والحث عليه: العلم بالله، وبالكون، بالأرض وبالسماء، وبما بين الأرض والسماء، فستجد أروع ما قيل فى الحث على طلب العلم.

خذ مثلاً الأمانة: تجد القرآن يُدخلها ـ كجزء لا يتجزأ ـ فى مفهوم الإيمان. يقول صلوات الله وسلامه عليه:

«لا إيمان لمن لا أَمَانَةَ لَه».

خذ الشورى. خذ الجهاد. وخذ الإعداد للجهاد ماديًّا، ومعنويًّا.

خذ العمل، والضرب فى الأرض، والسعى فى مناكبها، وخذ أروع الأخلاق الإنسانية العالمية من:

الرحمة، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

العدل، والإحسان. ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠].

ومفهوم الإيمان الصادق. ما هو؟

﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحجرات: ١٥].

فإذا أردت بيانًا لهذه الآية الكريمة ـ فى شىء من التفصيل فستجد: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ**

هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

وستجد: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وستجد: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٢-٧٦].

ستجد الخلق أسمى ما يكون الخلق، وستجد التشريع المعصوم ـ الذى لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه ـ وستجد العقيدة أصدق ما تكون العقيدة.

إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

لقد تمت صدقًا فى العقيدة والأخلاق، وتمت عدلاً فى التشريع ونظام المجتمع؛ إنها تمت صدقًا فى جميع أجواء الصدق، وتمت عدلاً فى جميع أجواء العدل.

وهى ـ فى صدقها وفى عدلها ـ خالدة أبدية. وكلها متضمنة فى القرآن الكريم، وفيما بيّنه من سنة رسول الله ﷺ، وسيرته.

وإذا كان الأمر كذلك، فما بال قومنا، اتخذوا هذا القرآن مهجوراً!؟

إن الكثيرين ـ من كبار المسئولين ـ لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له، وإن الكثيرين ـ من كبار الأثرياء ـ لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له، وإن الكثيرين ـ من كبار المثقفين ـ لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له.

وستنتهى حياة كل هؤلاء فى يوم من الأيام، ولن ينفعهم جاههم، ولا ثراؤهم، ولا ثقافتهم. وإلى هؤلاء ـ جميعًا ـ نقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [الحشر: ١٨-٢٤].

وما من شك فى أن هناك صفوة من المتقين لهم عناية بالقرآن؛ ولكن الجمعيات ـ التى تعنى بالقرآن ـ تعانى من بُخْل الأثرياء، ومن تعويق المسئولين ما تعانى!.

وهناك مجموعة ـ قليلة – من «المحافظين» تتجه ـ مشكورة ـ إلى العناية بالقرآن، ولكنها تخطو فى خطوات بطيئة، أما وزارة التربية فإنها ـ فى حقيقة الأمر ـ المجال الخصب، والحقل المثمر لو اتجهت نحو القرآن الكريم، بعزيمة صادقة.

وإن كل من يتجه إلى العناية بالقرآن الكريم، فى وزارة التربية، فإن الله سبحانه وتعالى سيجزيه خير الجزاء، فى نفسه، وفى أسرته.

﴿ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴾ [الكهف: ٣٠].

وسوف لا ينفع الأثرياء الشحُّ بمالهم، فى هذه الحياة، ولا فى الحياة الآخرة. ولقد شحّ الأثرياء بأموالهم ـ عن إنفاقها فى سبيل الله، والعناية بالقرآن، وتقوية الشعور الدينى: شعور الاستمساك بالكتاب والسنّة ـ فدارت عليهم الدائرة: مصادرة للأموال، والحريات، وتعذيبًا، وتنكيلاً، وخسفًا، وقمعًا وباءوا بالخسران والحسرة.

لقد التقى أحد كبار الأثرياء يومًا بشيخ من شيوخنا الصالحين، فنصحه هذا الشيخ: بأن يقدّم لله، ولآخرته بناءَ معهد دينى للقرآن الكريم، وللعلم الشريف، فأبى الثرى ـ صاحب الضياع الواسعة، والآلاف من الأفدنة. ثم... ثم كان ما يعلمه كل ثرى، شحّ بماله فى سبيل الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ٢٤].

ولعلك تتساءل:

ما بال الأزهر لا يرعى هذا الجانب؟

والواقع أن الأزهر يعنيه ـ فى الدرجة الأولى ـ إنشاء معاهد تخرج العلماء، الذين يقفون سدًّا منيعًا، يَصُدّ كل تيار منحرف؛ إن الأزهر، يجب أن يكون له فى كل قرية معهدٌ ابتدائى، وآخر إعدادى، ويكون له فى كل بلدة معهدٌ ابتدائى، وآخر إعدادى وثالث ثانوى.

أما المدن وعواصم المحافظات؛ فإن الأزهر يجب أن يكون له فى كل حى معاهد من كل نوع مما تقدم ولكن يحول دون ذلك قصور ميزانيته.

إن من أنفس أعمال الخير ـ التى يباركها الله سبحانه وتعالى ورسوله ـ إنشاء هذه المعاهد، لما يرجى منها فى نشر الوعى الدينى وإحياء التراث الروحى. حقًّا؛ إن كثيرين من أفراد الأمة المصرية ـ جزاهم الله خيرًا ـ قد اتجهوا إلى بناء المساجد، وهو عمل يشكرون عليه. وإن من الأعمال العريقة فى الخير إنشاء المعاهد لتحفيظ القرآن، وتعليم العلم؛ فإذا اتجه الخيّرون إلى إنشاء هذه المعاهد؛ فإن ذلك يكون دليلاً على الأخذ بأسباب الإصلاح المثمرة.

وأحب أن أقول للعاملين على الإصلاح: إن من وسائل الإصلاح الأخلاقى الحاسمة، أن ينشر الوعى الدينى فى استفاضة، ولن يتأتى ذلك إلا إذا أكثرنا من المعاهد الدينية الأزهرية... ونضرع إلى الله تعالى مخلصين أن يوجه الخيّرين إلى ذلك.

فى المدرسة الأولية

... ثم ذهبت إلى المدرسة الأولية ـ بعد أن أدّى الكتّاب رسالته، وأتممت فيه حفظ القرآن، ولما أصبحت فى سنٍّ مناسبة للالتحاق بالأزهر، رافقنى أبى إلى القاهرة، وهناك ألحقت به، بدأنا الدراسة فى المسجد. «مسجد إبراهيم أغا».

وأعود إلى حياتى من جديد لأحمد الله سبحانه، لا أحصى ثناء عليه، هو تعالى كما أثنى على نفسه، إنه الكمال المطلق، والرحمة الكاملة، وأرحم الراحمين، ورحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ورحمته بى أعم وأعظم من أن أفى بحمدها، وأعظمها: أعظمها على الإطلاق أننى نشأت «مسلما» ولا يتأتى أن أصل إلى التعبير الذى يصور، أو يقارب، شكرى لله تعالى على ما من الله تعالى به علىّ من هذه النعمة التى أتمها الله تعالى، وهذا الدين الذى أكمله الله، وهذا الإسلام الذى رضيه. وأن يكون إمامى وقدوتى وأسوتى هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى لا يقال فيه إلا ما قال البوصيرى:

ومنتهى القول فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم

الإسلام لكل زمان ومكان

أما عن الإسلام الذى لا دين غيره فلا مناص من أن نعطى القارئ لمحة عنه إلى أن ييسر الله تعالى الاستفاضة عنه.

الإسلام على الحقيقة، كما يقول الإمام البخارى هو الذى يؤخذ من قوله تعالى:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤][1].

أما إذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وعلى قوله سبحانه:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

الإسلام ـ الدين الخالص ـ يقول عنه «الراغب الأصفهانى» إنه «فوق الإيمان»: وهو أن يكون ـ مع الاعتراف ـ اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله، فى جميع ما قضى، وقدّر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فى قوله:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ [البقرة: ١٣١].

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله:

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١].

أى اجعلنى ممن استسلم لرضاك، ويجوز أن يكون معناه: اجعلنى سالمًا عن أسر الشيطان، حيث قال: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

---

(١) وقريب من هذا الذى ذكره الإمام البخارى ما ذكره الراغب الأصفهانى فى المفردات من أن الإسلام فى الشرع على ضربين:

أحدهما: وهذا الذى تذكره الآية الشريفة دون الإيمان. وهو الاعتراف باللسان، وبه يحقن الدم، حصل به الاعتقاد، أو لم يحصل، وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾. اهـ.

أما الضرب الثانى فهو الذى ذكرناه بعد رأى الإمام البخارى.

وقوله:

﴿ **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون** ﴾.

أى منقادون للحق، مذعنون له.

﴿ **يحكم بها النبيون الذين أسلموا** ﴾.

أى الذين انقادوا من الأنبياء ـ الذين ليسوا من أولى العزم ـ لأولى العزم(من الرسل) الذين يهتدون بأمر الله، ويأتون بالشرائع[١].

وهذا المعنى الذى ذكره صاحب المفردات، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمعنى اللغوى لكلمة «إسلام».

يقول «ابن الأنبارى» المتوفى سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين من الهجرة، فى المعنى اللغوى للكلمة:

« المسلم: معناه المخلص لله فى عبادته، من قولهم سلم الشىء لفلان: خلص له. فالإسلام: معناه، إخلاص الدين، والعقيدة لله تعالى»[٢].

وسواء نظر الإنسان إلى المعنى الشرعى للكلمة، أو إلى المعنى اللغوى، فإنه يجد أن هذا اللفظ لا يشير:

١ـ إلى شخص معين، كما تشير «البوذية» مثلاً إلى «بوذا»، و «الزرادشتية» إلى «زرادشت».

٢ـ ولا إلى شعب معين، كما تشير «اليهودية» إلى شعب بذاته.

٣ـ ولا إلى «إقليم» أو بلد معين، كما تشير «النصرانية».

والدين الذى يدل، أو ينتسب، أو يشير إلى شخص معين أو إلى شعب معين، أو إلى إقليم معين، يتحدد زمنه ـ ضرورة ـ بابتداء الشخص، أو الشعب، ويتحدد بالمكان، ولكن كلمة «الإسلام» لا تدل على زمان، ولا مكان، فهى:

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى.

(٢) تفسير الفخر الرازى الجزء الثانى ص ٣٢٨ المطبعة الخيرية سنة ١٣١٨هـ.

٤ـ لا تشير إلى زمن يحدها. ولا إلى مكان تتقيد به.

وتضعنا هذه الكلمة ـ مباشرة ـ في جو عالمى، مطلق، بل فى جو عالمى، يتخطى حدود هذا العالم الأرضى ـ إذا أمكن ذلك ـ فلا يتقيد به، ولا يتحدد بحدوده.

إنها لا تحد بالبعثة المحمدية: فسيدنا نوح عليه السلام يقول لقومه:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]. وسيدنا إبراهيم، يقول عنه القرآن الكريم:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وحينما كان سيدنا إبراهيم يرفع القواعد من البيت، هو وسيدنا إسماعيل أخذا يدعوان الله سبحانه قائلين:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

ولم ينس سيدنا إبراهيم، وسيدنا يعقوب أن يوصيا بنيهما بالإسلام.

يقول تعالى:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وحينما حضر سيدنا يعقوب الموت، قال لبنيه مستفسرًا، ليذهب إلى ربه مطمئنًا:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة: ١٣٣]؟

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال سيدنا موسى لقومه:

﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤].

وسيدنا يوسف يتجه إلى الله بالحمد، والشكر، والدعاء:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١].

وأوحى الله إلى الحواريين أن: آمنوا بى، وبرسولى.

﴿ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١].

ولما أحس عيسى من قومه الكفر، سألهم قائلاً:

﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٢]؟

قال الحواريون:

﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢].

على تسمية أتباع الدين الإسلامى ـ فى العصر الحاضر ـ بالمسلمين، كانت تسمية سابقة على وجـودهم الزمنى، فلقد بّين الله سبحانـه فى آية من القرآن بعض جوانب الرسالة الملقاة على عاتق الأمة الإسلامية وأشار فيها إلى سيدنا إبراهيم، وهى آية من آيات التوجيه الإلهى، الذى يجب أن يكون شعار كل مسلم. فقال سبحانه:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

ومن البديهى أن يكون «الإسلام» بهذه المكانة من العـموم، والشمول فى المكان، ومن عدم التـحديد بالبعثـة المحمدية، فإن أساسـه لا يختلف فيه اثنـان، وإن مبادئه الجوهرية حينما تعرض على النفوس المخلصة، لا تجد إلا القبول والإذعان.

أساس الإسلام وجوهره

والقرآن يعرض الإسلام ـ فى أساسه وجوهره ـ فى كلمات قليلة، لا مناص من الإيمان بها عندما يوجد الإخلاص، يقول تعالى، آمرًا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

ويأمره صلى الله عليه وسلم، فى خطابه مع أهل الكتاب أن يقول لهم:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويبين لهم الله سبحانه وتعالى إحدى علامات الصادقين والمرسلين، مفرقًا بهذه المناسبة بين الكفر، والإيمان فيقول:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

ويبيِّن الله فى عموم شامل، وفى شمول عام ـ فى صورة استفهام تقريرى ـ جوهر التدين، فيقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

ومن هذه الآيات السابقة، نعرف أن جوهر الإسلام هو:

١ـ فى العقيدة: إسلام الوجه لله، ومعنى إسلام الوجه لله:

الإيمان بوحدانيته، كما ترشد إليه الآية الأولى، مما أوردناه سابقًا، ووحدانيته سبحانه تقتضى «ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا».

إنها تقضى ألا نتخذ «الملائكة والنبيين أربابًا».

وتقتضى أن نكون ربانيين، والربانية فى العقيدة، أن يكون الله ـ وحده ـ هو المقصود، والمرجو.

٢ـ أما فى الأخلاق: فإن الإسلام هو: الإحسان. والربانية كما تكون فى العقيدة، فإنها تكون فى الأخلاق. والربانية فى الأخلاق أن يتخلق الإنسان بالأخلاق التى أمر الله بها.

والإسلام ـ إذن ـ كلمة شاملة لإسلام الوجه لله، وللإحسان، والإحسان -فى الحقيقة- يؤسس على إسلام الوجه لله، وينبع منه، فإسلام الوجه لله ـ فى النهاية ـ هو: الإسلام.

ولن يتأتى أن يعارض أحد، أو يرفض إسلام الوجه لله ـ إلا هؤلاء الذين خلت قلوبهم من معنى التدين.

ومن البديهى ـ إذن ـ أن الإسلام ـ إسلام الوجه لله ـ هو طريق الهداية.

﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ** ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومن شرح الله صدره للإسلام ـ إسلام وجهه لله ـ فهو على نور من ربه.

﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الزمر: ٢٢].

ومعنى إسلام الوجه لله: قد فسره الله سبحانه وتعالى حينما وضع ذروته ممثلة فى شخص الرسول ﷺ، إذ يقول:

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولعلّ أول آية نزلت من القرآن الكريم، تشير إلى هذا المعنى أيضًا، وكانت بذلك توجيهًا من أول الأمر إلى أن يكون العمل باسم الله لا باسم شيء آخر أو كائن آخر.

﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ [العلق: ١].

وآيات أخرى أشارت إلى المعنى الذى نقصده، ناهية عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

أما ما ذبح على النصب، فإنه فسق أيضًا؛ لأنه لم يذكر اسم الله عليه، أو لأنه ـ بتعبير آخر. لم يرد به وجه الله تعالى.

والإسلام ـ إذن ـ وفى ضوء ما سبق، هو الدين فى إطلاقه المطلق، وفى تحديده المحدد، فما لاشك فيه أنه لا دين خارج إسلام الوجه لله، وأن الدين ـ فى معناه الصحيح ـ إنما هو إسلام الوجه لله، وسواء عرفت الدين بهذا التعريف، أو ذاك، فإن معناه الصادق هو إسلام الوجه لله.

ومن هنا كان لفظ الإسلام أصدق تعبير عن الدين، وكانت القضية:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

قضية لا شك فيها:

وكانت القضية المترتبة على هذه:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قضية ـ هى الأخرى ـ لا شك.

إن كل من يرفض إسلام الوجه لله، إنما يرفض الدين.

وبمقدار بعد الإنسان أو قربه من إسلام الوجه لله، يكون قربه أو بعده من المعنى الصادق للدين.

وليس بغريب ـ والأمر كذلك ـ أن يتحدث القرآن الكريم عن طائفة من أهل الكتاب، انطوت جوانحهم على الإخلاص فيعلنون إسلامهم بمجرد أن يتلى عليهم القرآن، بل يعلنون أنهم كانوا من قبله مسلمين، يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ

مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥١-٥٥].

والنتيجة المنطقية لما سبق، ما أعلنه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ويقول سبحانه:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وإسلام الوجه لله هو التوحيد، وإذا كانت سمة النصرانية ـ فى وضعها الراهن، على ما يروى «البيرونى»ـ هى التثليث، فإن سمة الإسلام ـ حسبما يقول بحق. . هى التوحيد. إنها توحيد الله بالربوبية، بالخلق، بالإيجاد، بالإعطاء، بالمنع.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦].

إنه سبحانه وتعالى يملك الملك، فى اليسير منه، والعظيم فى الصحة، فى القوة، فى الجاه، فى الرزق، فى الغنى.

وهو يملكه فى الناحية القلبية: وقلب الإنسان بين إصبعين من أصابع الرحمن، وهو يملكه فى الهداية: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]. وهو يملكه فى الآخرة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

إنه سبحانه وتعالى: المتصرف المطلق فى الصغير والكبير، لا يعزب عن علمه، ولا عن قدرته ولا عن إرادته وحكمته مثقال ذرة فى الأرض، ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وهيمنته شاملة عاملة مطلقة.

ونعود فنذكر قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمرن: ٦٤].

أى فإن لم يعترفوا معكم، بأنه يجب أن تخصص العبادة لله وحده، وأن ينتفى الشرك به سبحانه، وألا يتخذ المخلوقون بعضهم بعضًا أربابًا. . .

أى فإن لم يعترفوا بهذا التوحيد، وأعرضوا، فأعلنوا: أنكم مسلمون أى موحدون.

الإسلام هو التوحيد

والإسلام ـ كما كانت الأديان فى نقائها، وصفائها من قبل ـ إنما هو التوحيد، وهو دعوة إلى التوحيد، فالتوحيد:ـ أى إسلام الوجه لله ـ جوهره، وأساسه. وكل تعاليمه، ومبادئه: إنما هى توحيد، وهى وسائل ومناهج للوصول بالإنسان إلى التوحيد: «أشهد أن لا إله إلا الله»، إنها رسالة السماء الخالدة وأشهد أن محمدًا رسول الله. . .

الذى بلغ الرسالة، فأدى ـ بهذا التبليغ الصادق ـ الأمانة، التى وكلت إليه، وهى التوحيد.

التوحيد: هو مبدأ الإسلام وجوهره، ولكن التوحيد، ليس مجرد قول، وليس مجرد كلمة لا أساس لها فى القلب والشعور.

وإذا لم يؤمن الإنسان بالتوحيد إيمانًا يملك عليه جميع أقطاره، فيتغلغل فى جميع أنحاء شعوره ووجدانه، ويغمر قلبه ونفسه، ويكيف جسمه، ويوجهه الوجهة السليمة. . . فإنه لا يكون كامل الإيمان.

ومن أجل إيجاد الإنسان الموحد فى صورة واقعية. . . كانت تعاليم الإسلام.

فالصـلاة إنما هى انفصال عن كـل ما سوى الله، من أجل الاتصـال بالله، فهى توحيد.

ومن هنا كان بدؤها «الله أكبـر» لتشعر الإنسان من المبدأ أن جمـيع ما فى العالم من سادة، وجمـيع ما فى العالم من بشر ـ تتعلق بـهم الآمال، أو يناط بهم الرجاء ـ فإن الله أكبـر منهم، وأجل وأعظم، فيجب أن تتـعلق الآمال به وحده، وأن يقـتصر الرجاء عليه سبحانه.

ثم تتوالى جمـيع الأوضاع فى الصلاة؛ من قراءة، وركوع، وسجـود، وتشهد، لتعلن ـ بكل حركة، وبكل وضع ـ الانفصال عما سوى الله، من أجل الاتجاه إلى الله وحده: ومن أجل إسلام الوجه إليه سبحانه.

والصـوم: إنما هو تنزه عن المادة، وعن السـوء فى القـول، والعـمل، فتـرة من الزمن، من أجل مرضـاة الله، إنه تنزه عن نقص البشـرية، الذى يتمثل فى شـهوات المعدة، لتخلص الروح فترة إلى التأمل فى كمال الله.

إنه محاولة للتخلق بأخلاق الله، لأنه ـ سبحانه ـ الكمال المطلق، الذى لا يحتاج إلى شىء، والذى لابـد لمن يأمل فى شىء من الكـمـال، من أن يتـحلّى بما أراده ـ سبحانه ـ منه، إنه تنزه عن النقص فى سبيل التوحيد.

والزكـاة: إنما هى بذل المادة فى سبـيل الله، إنها بذل المادة، التى يجـرى وراءها البشر، ويكـادون يعبدونها، بذلها بـعد امتلاكهـا، ، بذلها وقد كان فـيها ـ لو أراد ـ الوسيلة للملاذ، والشهوات، إنها تجرد عن المادة، توحيداً لله سبحانه.

وأمـا الحج ـ والله نسأل أن يكتـبه لنا كـل عام ـ فـإنه تجريد كله، إنه تجـرد عن الماضى، فـهو فى بدايتـه التـوبة عن الذنوب، والآثام ـ أى عن الفـترات التى غـفل الإنسان فيها عن ذكر الله ـ فأشرك معه غيره، واتخذ إلهه هواه، فنسى الله، فوقع فى المعصية، والإثم.

هو تجرد، حتى عن ملابس الماضى، وهو تلبية من أول لحظاته، تلبية هى استجابة لله ـ وحده ـ أو هى توحيد خالص، إنها استجابة كاملة للأمر بنفى الشريك.

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك، لا شريك لك».

إن هذا النداء الذى يتعالى ـ وله عبير طيب، وله سناء متألق. فيصعد إلى السماء، فتفتح له أبوابها، إن هذا النداء إنما هو الانطواء الكامل تحت راية التوحيد.

وتتوالى أعمال الحج كلها، واضحة سافرة، أو رمزية مستعلية، معلنة التوحيد، منادية به، طائفة وراءه، ساعية من أجله، واقفة تستشرفه، راجية من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يقبل أصحابها فى زمرة الموحدين: يقول الله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

هذه بعض معالم التوحيد فى العقيدة.

ومعالم التوحيد فى الأخلاق ألا يصدر عن الإنسان، ولا يرد فى سلوكه الشخصى، أو فى سلوكه الاجتماعى أمر إلا عن توجيه إلهى.

ومعالم التوحيد فى «النية» أن يكون الإنسان ـ فى كل ما يأتى، وما يدع ـ قاصدًا وجه الله تعالى، هو أن تكون حياته كلها لله، وليست الحياة وحدها، وإنما الممات أيضًا.

والتوحيد ـ على العموم ـ هو أن يهب الإنسان نفسه لله، فى قيامه، وجلوسه، فى نومه، ويقظته، فى حديثه وصحته، فى غضبه، ورضاه، فى صداقته، وعداوته، فى بيعه وشرائه، فى عمله وراحته، فى أفكاره وآرائه، فى توجيهه وإشاراته، فى نصائحه، وتحذيراته، فى كل نفس يتنفسه، أو طرفة عين يطرفها.

ونعود فنذكر ـ كقانون جامع ـ أن توحيد الإنسان: هو أن تكون صلاته، ونسكه، ومحياه، ومماته لله رب العالمين، لا شريك له.

ويقترب الإنسان من المثل الأعلى الإسلامى بمقدار قربه من هذه المعانى:

عقيدة، وأخلاقًا، ونية.

وقوله تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

إنما يشير بها إلى خلوصه من كل شائبة شرك. سواء أكان الشرك فى العقيدة، أم كان فى الأخلاق والنية. والله ـ سبحانه ـ أغنى الشركاء، فمن عمل عملاً لله ولغيره، فإن الله ـ سبحانه ـ برئ من عمله، وكذلك من اعتقد شريكًا لله، فالله برئ منه.

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». وذلك كله يسلمنا إلى أن المعنى الحقيقى للإسلام هو كما ذكرنا:

إسلام الوجه لله:

ويعبر عن هذا فى وضوح جميل الحديث الشريف الذى رواه الصحابى الجليل عمرو بن عبسة قال:

قال رجل: يا رسول الله. ما الإسلام؟ قال صلوات الله وسلامه عليه: **«أن يسلم لله قلبك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك»**[1] وما من شك فى أن سلامة المسلمين من لسان الإنسان ويده إنما ترجع إلى إسلام قلبه لله، وإنها على حد قول رسول الله ﷺ : **«لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»**.

وعلى حد قوله ﷺ : **«ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»**.

إسلام الوجه لله

وقد يتساءل إنسان: وما كيفية إسلام الوجه لله؟

ـ ما هى الوسائل لذلك.

ـ ما الطريق؟

---

(١) رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح.

أما الوسائل: فإنها المبادئ الإلهية، التى قررها الله ـ سبحانه. على لسان رسوله ﷺ : قرآنًا كانت، أو سنة قولية، أو عـملية: ولا مناص لكل من يريد أن يسلم وجهه لله ـ سبحـانه ـ من أن يرجع فى ذلك إلى القرآن، ومن أن يرجع فى ذلك إلى السنة، أى أنه لا مناص لكل من يريد الهـداية، أو التدين، أو الحق، من أن يلجـأ إلى القرآن، والسنة. وذلك أن القرآن الكريم، إنما هو النص الوحيد فى العالم الآن الذى احتفظ ـ بحفظ الله له ـ بالتعـبير الإلهى، الذى يشرح الدين، ويوضـحه، دون تحريف، بزيادة أو نقص، والقرآن لم يحتـفظ ـ بما أوحاه الله ـ بالمعنى فحسب، وإنما احتفظ بالتـعبير نفسه، وهذه منزلة، لا تدانيـها منزلة، ودرجة فى الدقة والصدق لا يضارعـها غيرها حتى ولا من قـرب. وإنها لمفخـرة ـ للمسلمين كبـرى، أن يكون الدين الذى يدينون به، إنما يرجعون فـيه إلى النص الإلهى نفسه، فى دقته، وفى نضـارته، وفى بركته، وفى سنائه، ولألائه.

وإنها لمفخرة للغة العربية، أن تحـتفظ بالنص الإلهى الوحيد فى العالم، أن تحتفظ بالكتاب الذى أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

أما النتيجة الأولى التى نريد أن نصل إليـها، فهى أن الدين، وإسلام الوجه لله، والتوحيد، والإسلام كلها بمعنى واحد، يفسر بعضها بعضًا.

ويشرح بعضها بعضًا، وكلها مطلقة عامة، لا يحدها زمان ولا مكان.

وكلمة «الإسلام» خير ما يعبر عنها فى جرسها، وفى كمالها:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

والنتيجة الثانية: هى أن جوهر الشخصية الإسلامية، أو شخصية المسلم، إنما هى إسلام الوجه لله، أو التوحيد، أو التدين الصادق، أو الإسلام.

وبمقدار قرب المسلم من الإسلام يكون كمال شخصيته.

في غيبة التشريع الإسلامى

وهذا الإسلام الذى نشأت عليه والذى أحمد الله حمدًا جزيلا على هذه النعمة الكبرى التى لا تعدلها نعمة قد طبق وخرج عن أن يكون مجرد مبادئ إلى أن أصبح واقعًا فأنتج بعقائده وأخلاقه وتشريعه خير أمة أخرجت للناس، واستمر الإسلام يطبق التشريع الإلهى المعصوم عدة قرون إلى أن أنشأت مصر ما سمته المحاكم المختلطة وتخلت فيها عن التشريع الإسلامى وفى هذه الفترة بالذات بدأ الاحتلال وبدأ التخلى كلية عن التشريع الإسلامى فإنه حينما احتل المستعمرون أرض الإسلام بدأوا يهدمون كل ما يقوى الشعور الإسلامى فى النفوس، ومن أجل ذلك غيروا القوانين الإسلامية، وأتوا بقوانين أوربية ألزموا بها أهل الأوطان المحتلة، وأتوا بقضاة من بلادهم يحكمون بقوانينهم، وينشرون تشريعهم، ولم يكتفوا بذلك، وإنما أنشأوا مدارس لتعليم القوانين الأوربية، وأصبحت هذه المدارس كليات حينما أنشئت الجامعات: هى كليات الحقوق، وهذه الكليات تدرس القوانين الأوربية، وتنفق عليها الدولة لتخرج قضاة ووكلاء نيابة ومحامين تخصصوا فى التشريع الأوربى، واستمر الأمر كذلك سنين طوالاً، فبدا على مر الزمن وكأنه أمر طبيعى، وأصبح انفصال المسلمين عن شريعتهم، وإحلال شريعة أوربا محلها أمرًا عاديًّا، ولا يجدون غضاضة فى إنفاق الأموال الطائلة على كليات تفصلهم عن تشريعهم الإسلامى..

وما من شك فى أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم أيام أن كان الاستعمار جاثمًا على صدور الأمم الإسلامية يأمر فيها وينهى، ولكن الاستعمار قد خذله الله وانهزم، ورجع المستعمرون إلى بلادهم، وكان من الطبيعى أن يزيل المسلمون آثار الاستعمار فى:

التعليم الذى وضع المستعمر برامجه لتخرج مجرد موظفين.

وفى اللغة التى كان يحاول أن يقضى عليها كما فعل فى الجزائر..

وفى الأخلاق التى حاول أن ينزل بها إلى مستوى لا تنهض معه أمة..

وفى التشريع الذى جعله أوربيًا وأحله محل شريعة الإسلام.

ومهما تكن مقاومة آثار الاستعمار فى ميادين مختلفة مما أفسده، فإن مقاومة هذه الآثار وإزالتها فى مجال التشريع لا نجد لها أثرًا فى وزارات العدل فى مختلف الأقطار الإسلامية، ولا نجد لها أثرًا فى دوائر القضاء..

ومن سخرية الأقدار أن يقول قائل: وأين هو القانون الإسلامى الذى نحكم به؟

إن القانون الإسلامى فى كتب الفقه الإسلامى، وكتب الفقه هذه، كتب عربية، ألفاظها عربية، وجملها عربية، وخطها عربى..

ولقد وصل الأمر بالاستعمار أن صاغ خريجى كليات الحقوق بحيث لا يفهمون بعد الليسانس كتابا عربيًا فى المواد التشريعية، وليس الأمر بغريب؟..

أتدرى أيها القارئ الكريم أن جدول التدريس فى كليات الحقوق يخصص عشرين محاضرة فى الأسبوع للقوانين الأوربية، ومحاضرتين فقط للشريعة الإسلامية؟..

أترى لو أنشئت هذه الكليات فى فرنسا أو فى إنجلترا أكانت تفعل أكثر من ذلك؟.. وهذه الكليات هى السر هى تخلفنا فى مجال التشريع، وذلك أنها دفعتنا بالتبعية للمشرعين الغربيين تدور فى فلكهم، وتسير على خطواتهم.

والتشريع الإسلامى من مفاخر الحضارة الإسلامية، ورجاله من نوابغ المفكرين فى العالم، لكننا الآن ـ بعد ذلك النبوغ وتلك العبقرية ـ قد أصبحنا أتباعًا مقلدين..

وهذا الموضوع أطرحه أمام القادة، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا فيما يتعلق بهذه الكليات..

ولكن السؤال الملح الذى يطرح نفسه بعد ذلك هو ما حدث فى غيبة التشريع الإسلامى، ماذا حدث؟ شر كله.. وإننى حينما أتحدث عن فترة غيبة التشريع الإسلامى التى مازالت مستمرة لا أتحدث عن مصر وحدها وإنما أتحدث عن كل الدول التى غاب عنها التشريع الإسلامى وما زال غائبًا..

أتحدث عن كل من الدول التى تنتسب إلى الإسلام وقد ألغت شريعة الله فيها. .

ماذا حدث فى غيبة التشريع الإسلامى؟

١ـ حدث كل هذا الرجس الذى نراه ونشاهده أينما سرنا: فى المعاملات، وفى السلوك، وفى العقيدة، وفى الاستهتار بالقيم الدينية استهتاراً بلغ من شأنه أن أصبح الإلحاد فى دين الله من الأمور التى تمر فلا تسترعى الانتباه، الإلحاد فى دين الله كفراً وارتداداً، والإلحاد فى دين الله استهتاراً بالقيم الدينية. .

٢ـ والإلحاد فى دين الله جدلاً فى الحدود القاطعة التى فرضها الله عقاباً على الجرائم.

وإذا أخذنا الآن بعض الأمثلة فإننا نقول:

إن قطع يد السارق أمر فرضه الله لا خلاف فيه، وهو علاج ناجع ضد السرقة، ويكفى أن يرى الناس الجد فى التنفيذ، يكفى أن تقطع يد سارق أو اثنين أو عدد لا يصل إلى أن يعد على أصابع اليد، فتمتنع عن السرقة نهائياً. .

وقد تمر أعوام لا تقطع فيها يد، وذلك أن طابع الحد يجعل كل من تسوّل له نفسه ينظر إلى يده فيتخيلها مقطوعة، فيرهب ويهرب من مجرد التفكير فى الأمر. .

ولكن ذوى التفكير المنحرف يهرجون بأن الأيدى سيقطع كثير منها فتكون البطالة، وتقل الأيدى العاملة، ويقل الإنتاج، ويستمرون فى هذا التهريج كلما دعا داع إلى كتاب الله. .

وفى غيبة التشريع الإسلامى أنشأت الدول المستعمرة فى بعض الأقطار الإسلامية مزارع ومصانع لإنتاج الخمور، والخمر على حد الوصف فى القرآن: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠]. قليلها حرام، وكثيرها حرام، واتخاذها كدواء حرام، فما جعل الله دواء أمتى ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ فيما حرم عليها. . وقد ذهب الاستعمار إلى غير رجعة، وكان من الواجب على هذه الدول أن تغير الوضع الاقتصادى فيها فتقضى على المزارع والمصانع التى أعدت من قبل لإنتاج الخمر. .

فـلابد من تحـريم ما وصـفـه الله بأنه رجس من عـمل الشـيطان فى كل الدول الإسلامية..

٣ـ وفى غيبة التشريع الإسلامى كان هذا الطوفان من العرى، ومن كتب الجنس، ومن هذه الأفلام التى تثـير الغرائز وتفسـد الشباب، والتى تنفق عليـها الدول أموالاً طائلة وتخسر الملايين فى سبيل ذلك..

ومن المصـائب التى تبكى أن يفكر فى إنشـاء المسارح فى الأحـياء الدينيـة، وفى شهـر رمضان، وكـأن إنشاء مسـرح للمطربين والمطربات و..و. من صـميم الدين؟ وكان الأولى أن يقام سـرادق للقرآن أو الدعوة الإسلامية فى المناسـبات الدينية، وفى كل الأوقات..

٤ـ وفى غيبة التشريع الإسلامى كان الربا، وكثرت الرشوة والاختلاسات، وكان كل هذا الرجس التى تعيش فيه بعض الأقطار..

ولتنظر إلى كلمات الله تعالى، فنجده سبحانه يقول:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]. ويقول:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]. ويقول:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. ويقول:

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

والواقع أن الحكم بما أنزل الله هو إقامـة حدود الله، والله سبحانه وتـعالى يقول فى الصفات الإيمانية عن المؤمنين:

﴿ ... وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ١١٢].

وحفظ حـدود الله، وإقامـة حدود الله، إنما هى لكل إنسان بحـسب موقـعه فى المجتمع..

فإذا ما طبق المجتمع حدود الله والتزمها، فإن الله سبحانه يمده بنصر دائم، وهو سبحانه يمد بهذا النصر الفرد إذا التزم حدود الله، ويمد به المجتمع إذا طبق حدود الله، وقد أبان الله سبحانه وتعالى ذلك، إنه سبحانه يقول:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

أما دوام النصر فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا.. ﴾ [النور: ٥٥].

وما من شك فى أن النصر من عند الله وحده:

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وما من شك فى أنه إذا نصر الله فلا غالب لمن نصره:

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦].

ولقد وضع سبحانه قوانين للنصر، ووضع قوانين لدوام النصر، وكلها تتركز فى طاعته فيما أمر، وفى الانتهاء عما نهى.

أيها الإخوة المؤمنون، إن قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

يجب أن يدوى دائمًا فى آذاننا، وأن يكون دائمًا على ألسنتنا، وأن تمتلئ به قلوبنا، وأن نحقق التقوى..

وإن الذين يحبون أن يكونوا فى عداد من رضى الله عنهم ورضوا عنه، لن يصلوا إلى هذا الرضوان إلا إذا عملوا على نشر كلمة الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، والطريق أمامهم مفتوح للعمل والنشاط.

ويكفى إرادة الخير، ونيـة الخير، ليصلوا إلى مرضـاة الله، وليكونوا فى زمرة من رضى الله عنهم ورضوا عنه ويكونوا من حزب الله:

﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وبعد:

فلا ريب فى أن جهادنا المقدس للنهوض بـالمجتمع، كل ذلك لم يفته بعد، ومن أجل الوصول بجهادنا إلـى غايته التى نرجوه لها؛ وهى تطبيق الإسلام بـجميع كلياته وجزئـياته، يجب على كل منا أن يتـحمل مـسئـوليتـه فى ذلك بحسـب موقعـه فى المجتمع.

إن القرآن الكريم يسـتعمل مادة «أمـر» حينما يتحـدث عن مسئوليـة كل منا تجاه المجتمع الإسلامى:

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والرسول ﷺ يستعمل «أمر» كذلك.

عن حذيفة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«والذى نفسى بيده لتأمرُنَّ بالمعـروف ولتنهون عن المنكر،أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم». (رواه الترمذى وحسنه).

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من نبى بعثه الله في أُمة قبلى إلا كان له من أمته حواريّون وأصحابٌ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فـمن جاهَدهُم بيده فـهو مؤمن، ومن جـاهدَهُمْ بلسانه فهـو مؤمن، ومن جاهَدهُم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

فإذا ما تحمل كل منا مسئوليته بحسب موقعه فى المجتمع عاد أمر الأمة الإسلامية على ما كان عليه: قوة وعزة ومرضاة لله تعالى ولرسوله ﷺ.

الفصل الثالث

فى الأزهر

ارتباط المعهد بالمسجد

وكان المسجد ـ طيلة القرون الماضية، منذ بدأ الإسلام، إلى عهد قريب ـ يرتبط بالمعهد ـ أى يرتبط بالعلم ـ برباط وثيق.

وكان المعهد «العلم» شديد الارتباط بالمسجد، لقد فقدنا ـ نحن الآن ـ فكرة «المسجد المعهد» أو «المعهد المسجد»، ويجب أن نحييها من جديد، ونعود إليها.

إنه فرق هائل أن تدرس تفسير القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، والفقه فى المسجد، وأن تدرس ذلك فى غرفة فى مبنى، لا يشع منه ما يشع فى المسجد من نور الإيمان، وجلال المكان، وعبير العبادة.

لقد كان «الإمام مالك» ﷺ، يتوضأ، ويلبس أحسن ملابسه، ويتعطر، ثم يذهب لشرح الحديث الشريف فى مسجد رسول الله ﷺ.

إن حياة المسجد بالمعهد، وحياة المعهد بالمسجد، وينبغى أن يعود الارتباط بينهما وثيقًا كما كان.

وفى أول يوم لبدء الدراسة، ارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر ـ عندما حان وقته ـ فى خشوع وجلال، وتأهبنا للصلاة، وتخلف بعض الطلبة عن القيام لها. إما لأنهم لم يتسلحوا بالوضوء من قبل والوضوء سلاح المؤمن ـ وإما على سبيل الكسل والتهاون، وإما لأنهم لم يتعودوا الصلاة فى أول وقتها... وأيًا ما كان سبب التقاعد عن الصلاة، فقد أخذت «خيزرانة» المراقب تؤدى واجبها ـ نحو المتقاعدين ـ فى جدٍّ، ونشاط وفرَّ الطلبة أمام المراقب، وهو يلاحقهم،... ثم تعودوا ـ بعد ذلك ـ أداء الصلاة لوقتها، لم يتكاسل منهم أحد.

الزواج المبكر عصمة وعفة

فى منتصف العام ـ تقريبًا ـ زارنى والدى ـ رحمه الله تعالى ـ فى المعهد المسجد، ولعله جاء إلى المعهد ـ بالذات ـ ليقف على مدى انتظامى فى الدراسة! ولعله ـ أولاً ـ أخذ يراقبنى عن بعد، ثم التقى بى، وشرع يحدثنى عن «الزواج» وعرض علىَّ أسماء فتيات، واستطلع رأيى.

كانت سنى ـ آنذاك ـ ثلاث عشرة سنة. وكان رأيى الذى قلته له: «الأمر لك، ولوالدتى»!

وعاد والدى إلى «العزبة». ومضت فترة، جاءنى بعدها خطاب، يقول فيه والدى:

«إن الأسرة كلها فى شوق إليك، فاحضر، لتراك، ولتطفئ غلة شوقها إليك».

وعدت إلى «العزبة» فى مساء الأربعاء،... وتمّ عقد زواجى فى يوم الخميس،... وعدت إلى القاهرة فى يوم الجمعة...

هذا الزواج المبكر ـ إذا كانت الحال ميسورة ـ ماذا تقول فيه؟.

إنه عصمة، وعفة!!

وما من شك فى أن الأراء تختلف فى شأنه؛ ولكن الأمر الذى لا مرية فيه، هو أن تأخير الزواج ـ كما هو الشأن الآن ـ فيه خطورة كبيرة على الذكور، وعلى الإناث أيضًا، خطورة على العصمة، وعلى العفّة. ولا يمارى فى ذلك إلا مكابر أو متجاهل.

ولعل خير ما نذكره فى ذلك، ما قاله رسول الله ﷺ ناصحًا الشباب:

«يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة [1] فليتزوج؛ ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء [2]».

---

(١) الباءة: النفقة.

(٢) الوجاء: الحفظ والصون.

الاحتفال بزفافى

. . . ونجحت فى الامتحان، وعدت لأقضى العطلة الصيفية بين الأهل فى «العزبة». وانتهزوها فرصة، لإتمام الزواج بالزفاف: وركبت الفرس ـ كما هى العادة فى الريف ـ وطاف بى فى شوارع «العزبة» وحولها، وتعالت الزغاريد ودقت الطبول، وصدحت المزامير، وأطلقت الأعيرة النارية بكثرة غير معهودة، وارتفعت أصوات الغناء، . . . ثم مدت الموائد، واجتمع الناس على طعام كثير، وخير وفير، . . . ثم كان ذكر لله تعالى، وقرآن يتلوه قراء مشهورون. وسهر الناس ـ سكان «العزبة»، وما جاورها ـ ليلة ممتعة، ظل طيفها ماثلاً فى الأذهان سنوات طويلة، يتحدث به من شهده.

مضى ـ على ذلك الآن ـ أكثر من نصف قرن، وما زالت الحياة تسير بى وبزوجى، رخاء. والحمد لله.

ومرت السنة الثانية ـ بالأزهر، طبيعية ـ دراسة، واستذكارًا، قضيناها بمسجد «المؤيد». وهو مسجد جميل، أحببناه، وأحببنا مواصلة الدراسة فيه.

وفى خلال هذين العامين شهدت موقفين كانا فى غاية الروعة:

سعد... عائد من المنفى

أما المنظر الأول فهو منظر استقبال «سعد باشا» وهو عائد من المنفى. . .

لقد خرجت القاهرة على بكرة أبيها، خرج رجالها ونساؤها شبابها وفتياتها. تستقبل «سعدًا» فى حماس بالغ. . . .

وخرج الأزهر بخطبائه، وبشعرائه، وكان الهتاف يدوى ـ فى كل مكان ـ عاليًا، مؤثرًا. . . كان الشعور العام كله فى غمرة من الفرح. . .

كان منظرًا رائعًا، فريدًا لا ينسى.

إضراب الأزهر

وأما ثانيهما فقد كان منظر الأزهر: كان الأزهر هائجًا مائجًا، وكانت الوزارة القائمة وزارة «سعد باشا زغلول» حينذاك لم أكن أعلم ـ آنذاك ـ عن الأسباب والبواعث والغايات شيئًا، ومع ذلك ذهبت إلى الجامع الأزهر مشاركًا «بجسمى»، متفرجًا، مستطلعًا.

وكان المشايخ «الطلبة» ينتظرون قدوم شخص من قبل «سعد باشا».

وجاء الشخص: شاب، وسيم، فتىّ، يمتلئ حيوية ونشاطًا، يكاد يقفز فى خطواته، ويشبه أن يكون متحفزًا، دائم التحفز، وتكاد كلماته أن تتدفق بنفسها من فمه، عذبة، قوية، مقنعة: وكان هذا الشاب هو «إبراهيم عبد الهادى».

اعتلى منبر الأزهر، وخطب، وخيل إلىّ ـ إذ ذاك ـ أنه أفاد وأقنع، وأنه بلغ فى الإقناع درجة لا تقبل المناقشة، وتلفت يمينًا وشمالاً؛ لأرى الأزهرى الذى يتصدى لخطر الرد!

وقام الأزهرى! وكان الشيخ «محمد الأودن» رحمه الله، وغفر له وتحدث وأجاد، وأخذت حججه تتوالى قوية، فياضة، متدفقة متماسكة، وأرضى شعور الأزهريين، ببلاغته، وإجادته.

ماذا حدث بعد ذلك؟ لا أدرى.

فيم كان الإضراب؟ وعلام تم الاتفاق؟

كل ذلك لا أدرى عنه شيئًا.

التحاقى بمعهد الزقازيق

أما فى السنة الثالثة، فقد طرأ تغيير ـ إلى حد كبير ـ فقد انتقلنا من المسجد ـ الذى ألفنا الدراسة فيه، وعشقناها، إلى غرفة فى مبنى، ليس له قداسة المسجد ولا روحانيته، انتقلنا إلى «معهد الزقازيق».

الذى أنشئ ليكون فرعًا للأزهر بالشرقية.

التحقت بمعهد الزقازيق فى أول يوم لافتتاحه، ورأيت فى ذلك اليوم، المرحوم «الشيخ إبراهيم الجبالى» بقامته الفارعة، وجسمه المليء، وملابسه الفضفاضة، وصوته الجهورى، وسمته المهيب، فقد كان ـ رحمه الله ـ عالمًا، أديبًا، كاتبًا، متحدثًا، لبقًا.

خطب فينا، ونصحنا ووعظنا، وتأثرنا بحديثه تأثيرًا عميقًا.

ثم انتظمنا فى سلك الدراسة بالمعهد.

اتصالى بالصحافة

وفى معهد الزقازيق بدأ اتصالنا بالصحافة، حيث بدأنا نقرأ الصحف، وكنا ـ إذ ذاك ـ نقتصر على صحيفة واحدة تقريبًا.

هى صحيفة «الأخبار» التى كان يصدرها «أمين الرافعى» عليه رحمة الله تعالى.

أمين الرافعى وصحيفة الأخبار

كان يتمثل فى هذه الصحيفة تياران:

تيار المعارضة: وكانت الصحف ـ فى ذلك الزمن ـ حرة كل الحرية، لا تقيدها قيود، ولا تحول دون هجومها على ما يجافى الحق ـ من وجهة نظرها ـ حوائل. كانت تنقد كل معوج، وتناقش كل أمر، لا تراه يمثل المصلحة العامة، ومن أجل هذه العيون الساهرة من الناقدين، كانت الأفراد، وكانت الحكومات لا تقدم على عمل ما ،يُشَهَّر بها فيه، وربما أقدم الفرد، أو أقدمت الحكومة على عمل، فواجهها النقد صريحًا، بنّاء، جريئًا صاخبًا، فيتراجع الفرد، وتتراجع الحكومة عن المعنى فى هذا العمل.

ولهذا كان هناك نوع من الاستقامة، لا تجده فى العهود التى كممت فيها أفواه الصحافة، وحجر على حريتها... ويرحم الله «أمين الرافعى»؛ فقد كان سوط عذاب على كل منحرف، وعاش شريفًا طيلة حياته.

مقالات الشيخ محمد شاكر

أما التيار الثانى: الذى كان يتمثل فى جريدة «الأخبار»: فإنه احترام الدين احترامًا تامًّا، والعملُ الدائب الدائم على نشر الوعى الدينى.

وكان صدرها مفتوحًا لعلماء الدين، يجدون فيها متنفسًا لكل ما يجيش بصدورهم من آراء وأفكار.

وكنا ـ ونحن طلبة ـ نَسْعد بقراءة المقالات الدينية، وكنا ننتظر ـ فى شوق ولهفة ـ مقالات المرحوم «الشيخ محمد شاكر». كان قلمه قلم أديب، وفكرته فكرة عالم ضليع، وتنسيقه للأفكار ـ فى تسلسلها: مقدماتها، ونتائجها ـ رائع.

ولقد رجوت نجله الأستاذ الأديب الكبير، العملاق «محمود شاكر» أكثر من مرة، أن يجمع آثار والده، وآمل أن يوفقه الله تعالى إلى ذلك لينتفع بها الناس.

ومن الممكن أن نقول: إن جريدة «الأخبار» كان يسيطر عليها الجو الدينى ـ بصفة عامة ـ ولا نملك الآن إلا أن نضرع إلى الله تعالى أن يفيض على صاحبها «أمين الرافعى» شآبيب رحمته، إنه تعالى نعم المجيب.

شوقى يرثى الرافعى

وحينما انتقل أمين الرافعى إلى رحمة الله تعالى قال فيه أمير الشعراء: شوقى، قصيدة نفيسة نشرت فى شوقياته، ننقل منها ما يلى:

أخذ الموتُ من يدِ الحقِّ سيفًا
خالدىَّ الغِرَار[1] عضْبًا صقيلا

---

(١) الغِرار: حد السيف، والعضب: السيف.

من سيوف الجهاد فولاذه الحقّ
فهل كان قينه جبريلا
لمسته يدُ السماء فكان البرق
والرعد خفقةً وصليلا
وإباءُ الرجال أمضى من السيف
على كفِّ فارسٍ مسلُولا
ربّ قلب أصاره الخُلقُ ضرغا
مّا وصدرٍ أصاره الحقُّ غيلا[1]
قيلَ: حلّله، قلت: عرق من التّبر
أراح البيان والتحليلا
لم يزدْ في الحديد والنار إلا
لمحةً حرةً، وصبراً جميلا
لم يخف في حياته شبح الفقر
إذا طاف بالرجال مَهولا
جاعَ حينًا فكان كالليث آبى
ما تلاقيه يوم جوع هزيلا
تأكل الهرّةُ الصِّغارَ إذا جاعت
ولا تأكل اللّباة الشُّبولا
قيلَ: غالٍ في الرأى، قلت: هبوه
قد يكون الغلو رأيًا أصيلا
وقديمًا بنى الغُلوُّ نفوسًا
وقديمًا بنى الغُلوُّ عقولا

(١) الغِيلُ: موضع الأسد.

وكم استنهض الشيوخَ وأذكى
في الشباب الطّماح والتأميلا
ومن الرأى ما يكون نفاقًا
أو يكون اتجاهه التضليلا
ومن النقد والجدال كلام
يشبه البغيَ والخَنَا والفُضُولا
وأرى الصدق ديدنًا لسليل الرافعيِّين
والعفافَ سبيلا
عاش لم يغتب الرجال ولم يجعل
شئون النفوس قالاً وقيلا
قد فقدنا به بقية رهط
أيقظوا النيلَ واديًا ونزيلا
حرَّكوه وكان بالأمس كالكهف
حُزونًا وكالرَّقيم سهولا
يا أمين الحقوق أدَّيتَ حتى
لم تخُنْ مصرَ في الحقوق فتيلا
ولو اسْطَعْت زدت مصر من
الحق على نيلها المبارك نيلا
لست أنساك قابعًا بين دُرْجيك
مُكِبًّا عليهما مشغولا
قد تواريت في الخشوع فخالُوكَ
ضئيلاً وما خُلقْتَ ضئيلا
سائل «الشعب» عنك «والعَلَم» الخفاق
أو سائل «اللواء» الظليلا

كم إمـــام قـــربت في الـصف منه
ومـــغـن قـــعـــدت منه رَســيـــلا
تنشـــد الناس في القـــضـــيـــة لحنًا
كـــالحـــوارى رتل الإنجـــيـــلا
مـــاضـيًـــا في الجـــهـــاد لم تتـــأخـــر
تـزن الصـف أو تقـــيـم الرعـــيـــلا
مـــا تبـــالى مــضـيـت وحـــدك تحـــمى
حـــوزة الحق أم مـــضـــيـت قـــبـيـــلا
إن يفُـت فـــيك منبـــرَ الأمس شـعـــرى
إن لـى المـنـبـــــــر الـذي لـن يـزولا
جل عـن منشـــد ســـوى الدهـر يلقـــيـــه
علـى الغـــابـرين جـيـــلا فـــجـيـــلا

صحف تابعة وملحدة ومأجورة

وإذا كنا قد سعدنا بجريدة «الأخبار» آنذاك؛ فقد شقينا ببعض الجرائد والمجلات، فى العصر الحاضر: شـقينا بها؛ لأنها أصبحت تابعة، وأصبـحت ملحدة، وأصبحت مأجورة.

والتابعة ـ دائمًا ـ مدّاحة، مصفقة، شأنها الطبل والزمر، لا يرجى منها إصلاح، أو اتجاه نحو الإصلاح. إنها صوت المتبوع بالحق، وبالباطل.

والملحدة فى جو دائم منَ سخطِ الله تعالى ومقته؛ فهى هدامة لكل القيم، تروج للانحراف، وتدعو إليـه، لا تعرف الفضيلة؛ بل تهدمـها: تهدمها بالقلم، وتهـدمها بالصورة، وبالقصة، وبالتمثيلية وبشتى الطرق والوسائل.

والمستغرب، أن هذا اللون من الصحف والمجلات ـ التابع الملحد المأجور لا يجد من المسئولين ـ ردعًا، حين يهاجم الدين، ويتطاول على علمائه، وكأن المسئولين عن الصحافة ـ على تتابعهم وتغيرهم ـ لا يعنيهم شأن الدين، فى قليل ولا فى كثير.

ونريد أن نقول فى صراحة: إن الذين لا يعنيهم شأن الدين، قد تجردوا من الوطنية، ومن الفضيلة. أما كونهم ليسوا بوطنيين، فإن الوطنى يعنيه أن تسود الفضيلة وأن يسود الأمن فى المجتمع، وأن يكون الأفراد والجماعات متمسكين بمكارم الأخلاق، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، وفى سبيل وطنهم. وكل هذا لا يكون إلا بنشر الوعى الدينى، وبالتالى تقوية الشعور الدينى فى النفوس.

وأما كونهم ليسوا بفضلاء، فهو بيِّن بنفسه؛ فالملحد لا يعرف الخلق الكريم، والحياة ـ بالنسبة له ـ فترة استمتاع، بكل وسائل المتع؛ إنه لا يعرف الحرام؛ حتى يجتنبه.

ولقد كتبت مرة ما يلى:

حرية الصحافة

الصحافة حرة فى حدود القانون

وهى حرة فى حدود الدستور

ولكنها من قبل ذلك ومن بعده حرة فى حدود الإسلام.

ثم هى من قبل ذلك ومن بعده حرة فى حدود الأخلاق.

على أن القانون والدستور قائمان على أن دين الدولة الإسلام، وعلى أن الخلق أساس المجتمع، وعلى أن كل تيار يهوى بأفراد المجتمع نحو الشذوذ والانحراف إنما هو تيار آثم.

نقول ذلك بمناسبة الحديث عن حرية الصحافة، والحديث عن أدب الجنس.

ومما لا شك فيه أن أدب الجنس لا يرتبط بالخلق الكريم إلا بالرباط العكسى، وأن الرجل الكريم على نفسه وعلى الله لا ينحدر إلى هذا المستوى المكشوف الذى لا يتمثل فيه السمو الروحى وإنما تتمثل فيه الغريزة الشهوانية الجنسية فى أحط مظهر يمكن أن تظهر فيه..

وهذا الأدب الجنسى يجد رواجًا لدى المراهقين، وهذا الرواج معناه ثروة طائلة للمؤلف، ومن أجل ذلك، من أجل المال المكتسب بطريق خبيث يكتب الكتاب المنحرفون عن أدب الجنس.

وهؤلاء الكتاب لا يعرفون المثل العليا ولا المبادئ الشريفة، وإنما همهم كل همهم المال من أجل اللذات، ومن أجل الجنس، أما الوطن ومصلحته، وأما إفسادهم المراهقين ونشرهم الفساد متأثرين بأدب الجنس فذلك لا يثير ضميرهم الضحل فى كثير ولا قليل.

ولقد سارت فرنسا فى هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الأولى فكانت النتيجة أن دمرتها ألمانيا فى أيام معدودة، ولقد أعلن زعيمها الماريشال بيتان - إذ ذاك - السبب فى انهيارها، فلم يكن إلا تطبيق أدب الجنس، والسير وراء كتاب أدب الجنس لتحقيق مثلهم السافلة.

هؤلاء الكتاب مثلهم فى الوطن كمثل الميكروب الخبيث، بل إن خطرهم أشد، وكما تحاسب الدولة الميكروب فتقضى عليه بالوسائل المناسبة فكذلك الأمر بالنسبة لهؤلاء الكتاب الذين تتمثل فيهم العداوة الكاملة للفضيلة، وبالتالى للوطن.

ولا يجوز قط أن تتخذ حرية الصحافة دعامة ليقول الكاتب ما يشاء، فإن مقدسات الأمة إذا هدمت بالأقلام الخبيثة فإن مصير الأمة إلى الانهيار.

وعلى هذا يجب - فى منطق الأخلاق والوطن، ولمصلحة الأخلاق والوطن - أن تضرب الدولة بيد من حديد على كل من يعيث فسادًا فى مقدساتها: أخلاقًا ودينًا، مسميًا الدعوة السافرة إلى الانحلال أدبًا، وما هى إلا انعكاسات نفس شهوانية ظهرت على قلم كاتب لا يمت إلى الفضيلة بصلة..

ورجاؤنا إذن حفاظًا على الدين والأخلاق والوطن، وإنقاذًا للمراهقين، أن تتكوّن فى الدولة رقابة خاصة بالكتب والصحف ووسائل الإعلام، تراعى المثل العليا والمبادئ الشريفة.

وبالله التوفيق.

فصلت نفسى من المعهد

انتهت السنة الثالثة بمعهد الزقازيق، وكذلك انتهت السنة الرابعة به أيضًا... وفى هاتين السنتين، دفعتنى الظروف للجد والاجتهاد - بصورة غير عادية - فقد تقدمت لعدد من المسابقات، آملاً النجاح فيها، وبذلك حصلت على معلومات - فى مختلف العلوم والفنون - تفوق المعلومات العادية، لنظائرى من الطلاب.

فلما نقلت إلى السنة الأولى من القسم الثانوى رأيت أن الوقت فيها - بالنسبة لى ضائع أو شبه ضائع؛ لأن ما لدى من علوم ومعرفة تتخطى حدود المقررات فى هذه السنة وما يليها...

وكانت نظم الأزهر - حينذاك - تبيح للطالب بالسنة الأولى الثانوية، أن يتقدم مباشرة - لامتحان الشهادة الثانوية الأزهرية، من الخارج.

وفكرت فى الأمر: فكرت فى أن أفصل نفسى من الأزهر، وأن أتقدم، فى آخر العام - من الخارج لامتحان الشهادة الثانوية.

وبعد تفكير طويل، كان العزم وكان التصميم، وفصلت نفسى من المعهد، ولم أخبر بذلك والدى، ولا أحدًا من أسرتى.

رسبوا جميعًا.. إلا واحدًا

واعتكفت فى المنزل، أواصل الليل بالنهار فى المذاكرة، والاستقصاء.

وأديت الامتحان فى آخر العام، وترقبت النتيجة، ولم يطل بى الانتظار، فقد أسفرت عن رسوب جميع الطلبة المتقدمين من الخارج رسوبًا لا يبيح لهم دخول

الدور الثانى، ما عدا طالبًا واحدًا، فإن له دورًا ثانيًا فى النحو والصرف اسمة: «عبد الحليم محمود» هو أنا !.

والحمد لله على هذا.

ألفية ابن مالك

ماذا أفعل فى النحو والصرف.؟ طرحت على نفسى هذا السؤال. !

ثم قلت، إن النحو والصرف لا يخرجان عن «ألفية ابن مالك».

فإذا حفظتها عن ظهر قلب، فقد ضمنت ـ بتوفيق الله تعالى ـ النجاح...

واستغرقت في حفظها؛ وحفظتها في إتقان... ودخلت الامتحان!

وتسلمت الأسئلة، ثم أجبت عليها ـ فى سهولة ويسر كنت أستحضر «بيوت» الألفية التى يتناولها السؤال، وأشرحها بشئ من الدقة....

ونجحت... وأرضى ذلك آمال والدى وشعوره نحوى. والحمد لله.

الأزهر

وعدت من جديد إلى القاهرة، فى المسجد الشريف، (الأزهر).

«لقد قال لى مرة أحد كبار المفكرين الغربيين: إن جدران الأزهر وأعمدة الأزهر، وأرض الأزهر، وجو الأزهر، كل ذلك مشبع بالعلم منذ مئات السنين».

إنك فى الأزهر تعيش فى جو الإيمان، وفى جو العلم، وفى تاريخ عريق، كله يدور حول العلم.

وإنك فى جو الأزهر تعيش فى جو من الجهاد ساد طيلة عشرة قرون، حفظ على الأمة لغتها، وحفظ عليها تراثها النفيس، وحفظ عليها وعيها الدينى ولعل الدولة

تعترف بذلك عمليًّا، فتعطى الأزهر ما يحتاج إليه (كل مـا يحتاج إليه) حتى يصمد للنضال فى سبيل الله.....

ومكثت فى الدراسة أربع سنوات، كنت فى أثنائها متصلاً اتصالاً كبيرًا بالجو الثقافى فى الأزهر، وفى خارج الأزهر.

أساتذتى فى الأزهر

كان من بين مدرسى القسم العالى بالأزهر، عديد من الشخصيات اللاًّمعة فى العلم والمنزلة.

الشيخ محمود شلتوت:

كان منهم الإمام الأكبر المرحوم الشيخ «محمود شلتوت»، عالم، مفكر، قوى الحجة، متحدث، لبق.

الشيخ حامد محيسن:

وكان منهم المرحوم الشيخ «حامد محيسن». عالم، مستقل التفكير، لا يعرف التقليد فى رأى، ولا يسوق الرأى دون برهان.

الشيخ سليمان نوار:

وكان منهم المرحوم الشيخ «سليمان نوار» أديب، طاهر القلب، له ذوق فى البلاغة راق.

الدكتور محمد عبد الله دراز:

وكان منهم المرحوم الدكتور «محمد عبد الله دراز» يمثل الاتزان المتزن، والخلق الكريم، ثقف نفسه، كأحسن ما تكون الثقافة، آراؤه موفقة، يتدفق أسلوبه فى البيان، عذبًا، شهيًّا، لا يمل.

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز:

ومنهم ـ أطال الله فى عمره ـ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز.

ثائر مناضل، خطيب ممتاز، لا يسأم من مساعدة الآخرين، ولا يتوانى عن السعى فى مصالح الضعفاء، حديثه ممتع، وفى أسلوبه عذوبة.

الشيخ الزنكلونى:

وعلى قمة اللامعين من رجال الأزهر، كان المرحوم الشيخ «الزنكلونى». عالم من كبار العلماء، فيه جرأة نادرة، وله فى الثورات سهم، وله فى المشاورات السياسية سهم كذلك أما فى النضال العلمى فله أسهم مرموقة. وكان يعتبر نفسه أبًا لكل من سمت به آمالُه، وارتفع به طموحه عن مرتبة الإمعات: يأخذ بيده، ويعاونه، ويدفع عنه مكر الماكرين.

الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى:

وكان فى الآفاق العليا ـ التى نتطلع إليها فى احترام وتقدير ـ الإمام الأكبر المرحوم الشيخ «محمد مصطفى المراغى»، عالم، ذكى، ذو شخصية جارفة، مهيب، صاحب رأى فى العلم، وصاحب رأى فى السياسة، بليغ الأسلوب.

أما صوته فى الخطابة، وفى الدرس؛ فإنه نغمة موسيقية عذبة ولعل الإذاعة تتنبه إلى ذلك فتعيد إذاعة ما عندها من خطبه، وأحاديثه، بين الحين والحين؛ لينعم الناس بنعمة جميلة، ويستفيدوا علمًا غزيراً.

الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق:

وكان فى هذه الآفاق العليا أيضًا المرحوم الإمام الأكبر الشيخ «مصطفى عبد الرازق». عالم، فيلسوف، حيىّ، حليم، كريم بماله ووقته لطلبة العلم، ولغيرهم. خرَّج جيلاً من النابهين فى الجامعة، وأسهم فى الحركة العلمية بجهود عظيمة: ألَّف، وحاضر، وكتب المقالات، ووجه تلاميذه إلى التحقيق، والتأليف، والترجمة، وفتح مكتبته الغنية بشتى الكتب، ونوادرها، لكل طالب علم مجد. . ..

أسبغ الله ـ على من لحق منهم بالرفيق الأعلى ـ شآبيب رحمته ومد فى عمر من بقى منهم على قيد الحياة.

وليس الأمر هنا أمر استقصاء، وإنما أحب أن أقول: إن هؤلاء جميعًا كانوا يمتازون بالجد فى تحصيل العلم، وما من شك فى أنهم لم يضيعوا وقتًا فى اللغو، وإنما سهروا الليالى فى تحصيل العلم، وكانت ثمرة ذلك أن أصبحوا من النابهين.

بهذا القدر المشترك، وبصفات أخرى لكل منهم، تميزه عن غيره، وتعلو به فى مجالات الرفعة مراتب، تختلف وتتفاوت.

ولا أحب أن أترك هذا المجال، قبل أن أتحدث، عن رأى من آراء الشيخ «مصطفى عبد الرازق» وعن توجيه من توجيهاته.

أما الرأى، فهو ما تحدث به: من أن منطق المسلمين هو(أصول الفقه).

وهذا الرأى إنما هو إلهام من توفيق الله تعالى.

إن المسلمين ـ حينما ترجموا الفلسفة اليونانية، فى عهد «المأمون» على الخصوص، وبتوجيه منه وتشجيع ـ اندفعوا فى سبيل تعلمها، ودراستها، ونشرها. وتخصص فيها من تخصص، وألّف وحبذ، وأشاد.

وراج للفلسفة اليونانية ـ فى الوسط الإسلامى ـ جو من التأييد مستفيض.

والفلسفة اليونانية، فلسفة وثنية، وأعنى بذلك: أنها فلسفة لا تنبع عن الوحى، فليس لها أساس من الدين، وكل ما كان كذلك فهو وثنى. . .

أرأيت إلى النبات يخرج من الأرض دون أن تكون هناك يد تتعهده!؟. . . إننا نطلق عليه أنه: «نبات شيطانى» كذلك الأمر فيما يتعلق بالآراء الروحية، التى لا تنبت فى الجو الدينى، فيتعهدها الوحى بالرعاية، والهداية، والتوجيه؛ إنها «آراء شيطانية»، أى آراء وثنية.

ولقد حاول مخترعوها أن يجدوا ـ فى غير الوحى ـ مقياسًا يرجعون إليه؛ لتمييز حقها من باطلها، فاخترع «أرسطو» المنطق.

وأخفق المنطق الأرسطى إخفاقًا تامًا، لم يفد ـ ولا قلامة ظفر ـ فى بيان الحق والباطل، ولم تستفد الإنسانية منه ـ ولا شروى نقير ـ أية فائدة.

ومع ذلك فقد فتن به قوم، ودامت الفتنة ـ فى جونا الإسلامى ـ إلى الآن.

وعلى الرغم مما كتبه الإمام «ابن تيمية» فى «نقد المنطق»، وفى «نقض المنطق»، وفى «الرد على المنطقيين».

وعلى الرغم من توفيق الله له توفيقًا كاملاً فى ذلك؛ فقد بقى المنطق فتنة للكثيرين.

وكان وما يزال يدرس فى الأزهر ـ لا على أنه صورة من صور الضلال الفكرى ـ وإنما على أنه قاعدة من القواعد العلمية.

وجاء المرحوم الشيخ «مصطفى عبد الرازق» ونبه على أن منطق المسلمين إنما هو «أصول الفقه»؛ إنه القواعد التى رسمت فى الجو الإسلامى؛ ليسير الرأى فى ضوئها على ما يحب الله تعالى ورسوله ﷺ.

ولقد وفق « الشيخ مصطفى عبد الرازق» فى ذلك كل التوفيق، واستفاض فيه فى كتاب: «تمهيد لدراسة الفلسفة الإسلامية» وهو فى سبيل زيادة البيان عن ذلك، كتب عن الإمام «الشافعى»؛ إذ إن الإمام الشافعى ؓ هو أول من ألف فى «أصول الفقه».

لقد كتب فى ذلك كتابه «الرسالة» وهى تتسم بالأسلوب الأدبى، الجزل: أسلوب الشافعى الأديب، وتتسم بالعلم الغزير: علم الشافعى الفقيه.

وعن الشافعى وعن رسالته وعن علم أصول الفقه يقول المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه المعنون: «الإمام الشافعى» ما يلى:

إذا كان الشافعى هو أول من وجّه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية فهو أيضًا أول من وضع مصنفًا فى العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمى بتصنيفه فى أصول الفقه..

قال الرازى: اتفق الناس على أن أول من صنف فى هذا العلم - أى علم أصول الفقه - الشافعى، وهو الذى رتب أبوابه، وميز بعض أقسامه من بعض، وشرح مراتبها فى القوة والضعف.

وروى أن عبد الرحمن بن مهدى التمس من الشافعى وهو شاب أن يضع له كتابًا يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة، والإجماع والقياس، وبيان الناسخ والمنسوخ، ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعى ﷺ «الرسالة» وبعثها إليه، فلما قرأها عبد الرحمن بن مهدى قال:

«ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل»

ثم قال الرازى: واعلم أن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة «أرسطاليس» إلى علم «المنطق».

ثم قال: «الناس كانوا قبل الإمام الشافعى يتكلمون فى مسائل «أصول الفقه» ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة، وفى كيفية معارضتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعى علم «أصول الفقه»، ووضع للخلق قانونًا كليًا يرجع إليه فى معرفة أدلة الشرع:

وقال الرازى:

واعلم أن الشافعى صنف كتاب «الرسالة» ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب «الرسالة»، وفى كل واحد منهما علم كثير.

ويقول بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى المتوفى سنة٧٩٤هـ فى كتابه فى أصول الفقه المسمى «بالبحر المحيط» فصل:

الشافعى أول من صنف فى أصول الفقه، صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس، الذى ذكر فيه: تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهادتهم..

ثم تبعه المصنفون فى علم الأصول، قال أحمد بن حنبل: «لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعى»..

وقال الجوينى فى شرح الرسالة: لم يسبق الشافعى أحد فى تصانيف «الأصول» ومعرفتها، وقد حكى عن ابن عباس «تخصيص عموم»، وعن بعضهم «القول بالمفهوم»، ومن بعدهم لم يقل فى الأصول شيئًا، ولم يكن لهم فيه قدم، فإنا رأينا كتب السلف من التابعين وتابعى التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه.. (من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس)..

ويقول ابن خلدون فى المقدمة: «وكان أول من كتب فيه ـ أى فى علم أصول الفقه ـ الشافعى ﷺ، أملى فيه رسالته المشهورة، تكلم فيها فى: الأوامر والنواهى، والبيان، والخبر والنسخ، وحكم العلة المنصوصة من القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه، وحققوا تلك القواعد، وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضًا..

وفى كتاب «طبقات الفقهاء» للقاضى شمس الدين العثمانى الصفدى: «وابتكر الشافعى ما لم يسبق إليه.. من ذلك: أصول الفقه، فإنه أول من صنف أصول الفقه بلا خلاف، ومن ذلك: كتاب القسامة، وكتاب الجزية، وكتاب قتال أهل البغى». (من نسخة خطية بدار الكتب الأهلية بباريس).

ويقول صاحب كتاب «كشف الظنون»، وأول من صنف فيه الإمام الشافعى.. ذكره الأسنوى فى التمهيد، وحكى الإجماع فيه والباحثون فى هذا الشأن من الغربيين يرون فى الشافعى: واضعًا «لأصول الفقه».. يقول «جولدزيهر» فى مقالته فى كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الإسلامية:

«أظهر مزايا محمد بن إدريس الشافعى أنه وضع نظام الاستنباط الشرعى من أصول الفقه، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول، وقد ابتدع فى «رسالته» نظامًا للقياس العقلى الذى ينبغى الرجوع إليه فى التشريع، من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم، ورتب الاستنباط من هذه الأصول، ووضع القواعد لاستعمالها بعد ما كان جزافًا..

وقد لا يكون بعيدًا عن غرض الشافعى فى وضع أصول الفقه أن يقرب الثقة بين أهل الرأى وأهل الحديث، ويمهد للوحدة التى دعا إليها الإسلام.

أما التـوجيه: فهـو ما أرشد الشـيخ إليه الدكتـور «على سامى النشار» لقـد كان الدكتور «على سامى النشار» من تلامذة الشيخ «مصطفى بعد الرازق» ووجهه إلى نشر كتاب «الإمام السيوطى»، «صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام».

وهو كتـاب ينقد المنطق الأرسطى، بقلـم كبار المسلمـين، وينقد الانغـماس فى الجدل فى علم الكلام، بأقـلام كبار علماء المـسلمين أيضًا وإذا كان المرحـوم «الشيخ مصطفى عبد الرازق» قـد أفاض ـ فى كتابه «التمهيد» فـى الرد على النزعة التى تتجه إلى البحث فى عـلم الكلام؛ فإن توجيـهه للدكتـور «على سامى النشـار» لنشر هذا الكتاب كان تأكـيدًا، أو زيادة بيان لما سبق أن حاوله: من التنبـيه على العناية بالجدل الكلامى، وتدريسـه ـ على هذه الصورة المسـتفيـضة والتى لا نتـيجة لهـا، ليس من الأمور المحمودة.

مصطفى عبد الرازق وعلم الكلام

ومما كتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق عن الجدل والمماراة فى علم الكلام ما يلى:

«تقرير العقائد الدينية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام».

جاء الإسلام يقـرر أن الدين الحق واحد، هو وحى الله إلى جميع أنـبيائه، وهو عبارة عن الأصول التى لا تتبدل بالنسخ ولا يختلف فيها الرسل، وهى هدى أبدًا.

أما الشـرائع العمليـة فهى متـفاوتة بين الأنبـياء، وهى هدى ما لـم تنسخ، فإذا نسخت لم تبق هدى.

قال الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٣ ـ ٤٤م) فى تفسير قوله تعالى:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

«والمراد بهداهم طريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين، دون الشرائع فإنهـا مختلفة، وهى هدى مـا لم تنسخ، فإذا نسخت لم تبق هدى، بخـلاف أصول الدين فإنها هدى أبدًا».

قال ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٧م):

«وقد أرسل الله جميع الرسل، وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى:

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]. فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعتهم، والإيمان بالرسل هو الأصل الثانى من أصلى الإسلام[1].

وقد بعث محمد، علية الصلاة السلام، بدين وشريعة، أما الدين فقد استوفاه الله كله فى كتابه الكريم ووحيه، ولم يكل الناس إلى عقولهم فى شىء منه، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادى تفصيلها.

وجاء فى القرآن المجيد:

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ١ ص ٣٥.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكان نزول هذه الآية فى يوم عرفة عام حج النبى، ﷺ، حجة الوداع، ولم يعش النبى بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة، ولم يمت رسول الله حتى كمل الدين.

روى الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ (٩٢٢ - ٢٣م) عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ - وهو الإسلام، قال: «أخبر الله نبيه، ﷺ والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله عز وجل فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه فلا يسخطه أبدًا».

وقد بعث محمد ﷺ بدين الإسلام، داعيًا إلى الوحدة فى الدين، وإلى التآلف، ناهيًا عن الفرقة، كما فى آيات كثيرة من القرآن، منها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وكان على القرآن أن يجادل مخالفيه من أرباب الأديان والملل فى العرب، ردًا للشبهات التى كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد، على أنه كان لا يمد فى حبل الجدل حرصًا على الألفة. وكثيرًا ما تختم آيات الجدل بمثل قوله:

﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨، ٦٩].

هذا الجدل فى العقائد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدارها، من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه، بل هو قد نفرهم منه، فى مثل قوله:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

جاء فى كتاب «مختصر جامع بيان العلم»:

«وعن العوّام بن حوشب عن إبراهم التيمىّ فى قولهِ تعالى:

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤]. قالَ: الخصومات بالجدل فى الدين».

وهذا يتفق مع قول كثير من المفسرين: كالزمخشرى، والبيضاوى المتوفى سنة٧٩١هـ (١٣٨٩م).

كان لهذه المعانى الدينية التي قررها الإسلام منذ نشأته أثرها العظيم فى توجيه النظر العقلى عند المسلمين فى عهدهم الأول، فكرهوا البحث والجدل فى أمور الدين دون أمور الأحكام الفقهية.

وفى كتاب «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦هـ (٨٧٨ ـ ٧٧٩م) بصدد الطعن على المختلفين فى أصول الدين:

قال أبو محمد: لو كان اختلافهم فى الفروع والسنن لاتّسع لهم العذر عندنا، وإن كان لا عذر لهم مع ما يدعون لأنفسهم، كما اتسع لأهل الفقه ووقعت لهم الأسوة بهم، ولكن اختلافهم فى التوحيد، وفى صفات الله تعالى، وفى قدرته، وفى نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، وعذاب البرزخ، وفى اللوح، وفى غير ذلك من الأمور التى لا يعلمها إلا نبى بوحى من الله تعالى»[1].

نتائج ثلاث

أما النتيجة التى ينتهى إليها تفكير الشيخ مصطفى عبد الرازق، وهى نتيجة ينتهى إليها كل مفكر يتحرى الصواب والحق فهى:

١ـ منطق المسلمين: هو أصول الفقه.

٢ـ المنطق الأرسطى لا فائدة فيه.

(١) تأويل مختلف الحديث.

٣ـ الاستفاضة فى الجدل الكلامى غير محمودة.

هذه الزوايا مما عُنِيَ بها المرحوم، الشيخ «مصطفى عبد الرازق».

وقد صاحبه التوفيق، وهداه الله إلى الصراط المستقيم.

كنت أحضر الدروس فى الأزهر، وكنت أحرص على حضور المحاضرات التى تلقى ـ هنا وهناك فى القاهرة ـ خارج الأزهر.

وكان محط أنظارنا، جمعية «الشبان المسلمين»؛ فقد كان فيها نشاط دائم، وكان للقائمين عليها ـ آنذاك ـ عناية صادقة بهداية الشباب، وكان الدكتور «أحمد محمد الغمراوى» ـ عليه رحمة الله تعالى ـ من الدائبين على إلقاء المحاضرات فيها، كل أسبوع تقريبًا. وكان الموضوع الذى يتحدث فيه دائمًا هو: «الإسلام والعلم».

كان أحيانًا يلقى المحاضرة على الطريقة السائدة التقليدية؛ ولكنه ـ فى أغلب الأحايين ـ كان يستمع إلى الأسئلة ويرد عليها ـ وما كانت المحاضرة تخرج عن أسئلة، وإجابة على الأسئلة.

ولابد من كلمة فى موضوع: «الإسلام والعلم».

إن كلمة «العلم» حينما تذكر فى هذا المجال، إنما يقصد بها المفهوم الغربى لهذه الكلمة: والمفهوم الغربى لكلمة العلم هو «القواعد التى تقوم على أساس من الملاحظة، والتجربة، والاستقراء». وما عدا ذلك فإنه ـ فى المفهوم الغربى ـ لا يسمى علمًا.

وعلى هذا الأساس فالفلسفة لا تسمى علمًا.

وما يرجع إلى الذوق ـ كالفنون بمختلف ألوانها ـ لا يسمى علمًا.

وهناك علم، وفلسفة، وفن، ودين.

فما بنى على الملاحظة، والتجربة، والاستقراء هو علم.

وما بنى على العقل البحت فهو: فلسفة.

وما بنى على الذوق فهو: فن.

وما بنى على الوحى: فهو دين.

ومن المؤسف أن كبار المفكرين ـ فى مصر ـ أثاروا موضوع:

العلاقة بين «العلم والدين» فى مجلة «السياسة الأسبوعية» ـ وكانت تظهر أيام أن كنا طلبة بالقسم العالى، وكنا ننتظر صدورها بشغف ـ فخلطوا بين هذه المفاهيم، ولهذا الخلط ـ الذى وقع منهم: من كبارهم ـ فإنهم لم يصلوا إلى نتيجةٍ ترضى الحق.

وكان خلطهم واضحًا بين العلم والفلسفة.

وما من شك فى أن الحديث عن العلم ـ بالمفهوم الذى ذكرناه ـ وعن الدين، يختلف عن الحديث فى موضوع العلاقة بين الدين والفلسفة.

واختلاف الدين، وبعض الآراء الفلسفية اختلاف دائم، ولا ضير فى ذلك؛ فإن الخلاف فى الفلسفة نفْسها: بين فيلسوف وآخر، وبين عصر وعصر، خلاف مستمر.

والفلسفة يهدم بعضها بعضًا، وكل فيلسوف يهدم كل من عداه.

وكل مدرسة فلسفية تخطئ جميع المدارس التى تخالفها.

وهذا الاختلاف نشأ منذ أن نشأت الفلسفة.

ولم يصل الفلاسفة إلى مقياس يفصل فيما بينهم، يفصل بين الحق والباطل، بين الخطأ والصواب.

ليس فى الفَلسفة يقين؛ إن الآراء الفلسفية كلها ـ دون استثناء ـ ظنية. إنها ظنّية باعتبارها فلسفة رأى باعتبارها اختراع بشرى ـ فى مسائل لا مجال لمقْياس فيها، لا مجال للفصل فيها.

إنها ظنية، لا تريم عن ظنيتها على مدى العصور، وعلى مختلف البيئات.

بل إنه يمكن أن يقال ـ بيقين ـ إن الفلسفة لا رأى لها؛ إنها لا رأى لها فى أية مسألة من المسائل الجزئية، وهى لا رأى لها فى أى موضوع من الموضوعات الكلية.

والأمر بدهى؛ فإنه مـا دام كل رأى فلسفى يعارضه رأى آخـر فلسفى، ويعارض الرأيين، رأى ثالث فلسفي وهكذا. . . فتكون النتيجة أنه لا رأى للفلسفة.

فإذا اختلفت الفلسفة والدين، أو بتعـبير أدق، إذا اختلفت بعض الآراء الفلسفية والدين، فهى المخطئة، والدين هو المصيب. . .

هى المخطئة والرأى الفلسفى المعارض لها، الموافق للدين هو الصواب.

إنه الصواب ـ لا باعـتباره رأيًا فلسفيًّا ـ وإنما باعتـباره متفـقًا مع الرأى الدينى الصواب.

ولا قيـمة مطلقًـا ـ فى المجال الدينى ـ لـلاختلاف بين بـعض الآراء الفلسفـية، والدين. وكل اختلاف من هذا القبيل، لا يؤبه له، ولا يقام له وزن.

والموضـوع الحقـيـقى: إنما هو موضـوع «الصلة بين الدين والعلـم» هل بينهمـا تعارض؟

إن هذا الموضوع يُثَارُ كثيرًا. فكيف نشأت الفكرة؟.

إن نشأة هذا الموضوع معروفة، محدودة، كـتب عنه الغربيون كثيرًا، لأنه نشأ فى ربوعهم. .

عند نشأة النهضة الأوربيـة كانت الكنيسة ـ فى أوربا ـ متحكمـة، مسيطرة. وقد أقامت محاكم التفتيش للتنكيل بكل من يخرج عليها.

وكانت محاكم التفتيش قوية، قـاسية، رهيبة، تثير الرعب، وتبث الفزع فى كل نفس. وذلك لما كانت تصبـه من ألوان العذاب: على التهمة، وعلى الشـبهة، وعلى الظن، وعلى مـجرد الشـائعـة، وعلى الاتهام بطريـق ورقة ـ من مـجهـول ـ تصل بالبريد، بدون توقيع.

وكان الـعذاب ـ أحيـانًا يتمـثل فى الإلقـاء فى الزيت المغْلى، أو الربط فى ذيول الخيول المسرعة فى عدوها، ليتمـزق المعذَّب. ويتناثر أشلاء، فضلاً عن القتل بأنواعه المعروفة.

وكانت الكنيسة ـ وهذا فى غاية الغرابة ـ قد تبنت آراء «أرسطو» ـ لماذا؟. ليس هناك من سبب معقول. . . !!.

تبنتها، وحرّمت نقدها، فضلاً عن نقضها.

وقامت النهضة على الملاحظة، والتجربة، وأخذ العلماء يرون ـ فى آراء «أرسطو» فى الطبيعة ـ الخطأ بعد الخطأ، وكان الجزاء التعذيب، والتنكيل.

ويسير العلم ـ قدمًا ـ فى طريقه، وتسير الكنيسة ـ قدمًا ـ فى طريقها. . . وجاء اليوم الذى صار فيه العلماء من الكثرة بحيث قهروا آراء «أرسطو» المخطئة.

وبدا للناس أن الدين ـ ويمثله رجال الكنيسة، ورجال محاكم التفتيش ـ يعارض الدين الذى يمثله العلماء. . . .

لا تعارض بين الدين والعلم

ونشأت مشكلة «تعارض الدين والعلم».

نشأت نشأة مزيفة؛ فإن التعارض إنما كان بين آراء «أرسطو» والعلم: كان بين آراء رجال الكنيسة ورجال العلم، ولم يكن ـ فى حقيقة الأمر ـ بين الدين والعلم.

ولكن تيار الإلحاد المتتابع، تابع الحملة على الدين، متحدثًا عن وقائع حدثت، لا عن اختلاف الموضوعات الثابتة.

يتحدث الملاحدة عن تعذيب هذا، والتنكيل بذاك، وليس هذا موضوع القضية!. وإنما موضوعها، تعارض مبادئ الدين، وما أثبته العلماء من قواعد مبنية على التجربة. ولم يثبت الملاحدة ذلك فى يوم من الأيام.

على أن الملاحدة حينما يتحدثون عن ذلك، يجانبهم التوفيق من جانب آخر؛ وذلك، أن موضوع «العلم» المادة: إنه القواعد التى بنيت على التجربة، والملاحظة.

وموضوع الـدين: العقائد، والأخلاق، والتـشريع، ونظام المجتمع، والتـقوى، وصـلاح الفرد، وصلتـه بالله تعالى، وصلـته بأخـيه الإنسـان فى المجتـمع، والرقى بالفرد، وبالمجتمع، إلى القرب من الله تعالى، ورضائه. وكل ذلك عن طريق الوحى المعـصوم، الذى أرسل الله به رسـلهُ هداية للإنسانيـة. . . فـأين هذا من المادة، ومن موازينها، ومقاييسها؟ على أن المشكلـة كلها، بعيدة ـ تمامًا ـ عن الجو الإسلامى؛ إنها قضيـة غرْبية بحتة، قـضية تتصل «بأرسطو» والكنيـسة، ومحاكم التفـتيش، وعلماء أوربا.

والذين أثاروا المشكلة فى الشـرق، جـماعـة من البَبْـغَاوات، درسـوا فى أوربا، ولقنهم سـادتهم من الملاحـدة، أن بين الدين والعلم تعـارضًا، فـتحـدثوا بذلك فى الشرق ـ حديث الببغاوات ـ دون دراسة، أو بحث، أو فهم للموضوع فهمًا حقيقيًا.

ما كُـتبَ فى «السياسة الأسـبوعية» وهو كـثير، مسـتفيض، كان أكـثره من هذا القبيل، ـ النقل الببغائى ـ من غير فهم ناتج عن بحث ودرس.

جمعية الشبان المسلمين

وأعود، فأستأنف القول:

كنت لا أتخلف عن مـحاضرات الدكـتور «أحمـد محمـد الغمـراوى» بجمعـية «الشبـان المسلمين». وكان ـ رحمـه الله تعالى ـ من أصدق الناس حديثـا، وأعظمهْم رأيًا، فى موضوع «العلم». وفى موضوع «الدين». . .

وقد نشـر له أخيرًا كـتاب، «الإسلام فى عـصر العلم». وهو من أنفس كتـبه. رضى الله تعالى عنه، وأرضاه.

جمعية الهداية الإسلامية

وكنت أتردد ـ أيضًا ـ على جـمعية «الهـداية الإسلامية». وكـان المرحوم، الإمام الأكبر، الشيخ «محمد الخضر حسين» رئيسًا لها.

الشيخ محمد الخضر حسين

والشيخ «محمد الخضر حسين» مؤمن صادق الإيمان، مجاهد، مناضل، وهو تونسى المنبت، والنشأة... جاهد فى صفوف الوطنيين، حتى حكم عليه بالإعدام، وجاء إلى مصر، عالمًا، ثبتًا فقيهًا، لغويًّا، أديبًا، كاتبًا، من الرعيل الأول... وقد أرضى ـ بنزعته المعتدلة،وحجته القوية، وتثبته مما يقول جميع الطوائف، وذلك أن كل رأى يقول به، إنما يستند إلى دليل واضح مقبول.

ولقد أسهم فى الحركة الفكرية الإسلامية، بنصيب وافر، فكتب فى كل ما أثير فى عصره الخصب فى الفكر، والبحث.

كتب فى «الخلافة»، وفى «الشعر الجاهلى». وفى «حكمة الشريعة». وفى «صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان» فقد كان عالمًا، تفرغ للعلم، لم يشغله عنه شاغل من شواغل الدنيا، أو الجاه والسلطان.

وحينما تولى «مشيخة الأزهر» ـ لم يغير شيئًا من عاداته، كان على استعداد كامل ودائم لأن يعيش على كسرة من الخبز، وكوب من اللبن. ؛ ولأنه لم يكن له فى شهوات المنصب من حظ، فإنه كان ـ دائمًا ـ يحتفظ باستقالته فى جيبه. ولقد كان يقول: «إن الأزهر أمانة فى عنقى، أسلمها ـ حين أسلمها ـ موفورة، كاملة وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدى، فلا أقل من ألا يحصل له نقص».

ومات ـ رحمه الله تعالى ـ لم يخلف من حطام الدنيا شيئًا... مات، وقد قدم لأخراه، النصيب الأوفر، من حياته؛ بل كل حياته رضى الله عنه وأرضاه.

وقد جُمِعَ الكثير مما كتب، وتمّ طبعه فى «لبنان»، بعد وفاته، وهو كنز نفيس، جم النفع، لمن يحصله.

محمد فريد وجدى

وقد تعـرفت ـ فى أثناء الدراسة بالقسم العـالى ـ بالأستاذ الكبـير «محمـد فريد وجدى». وكـان يستقـبل زائريه، كل يوم بعد صلاة المغـرب ـ لمدة ساعة ـ يتـحدث إليهم، ويجيب على أسئلتهم، ويدلى برأيه فيما يُثارُ ـ من موضوعات ـ فى الصحف اليومية.

وقد كان الأستاذ «فريد وجدى» معنيًّا ـ كل العناية ـ بالتصدى لنزعات الإلحاد، والمادية: يهاجمها، ويرد عليها، مسـتعينًا فى كل ذلك ـ بآراء كبار المفكرين الغربيين. وقد ألّف فى هذا الباب، كتابه النفيس: «على أطلال المذهب المادى».

وهو كتاب، تشعر ـ لأول وهلة ـ أنه وليد دراسة متبصرة، متأنية، فقد أجاد فيه، كل الإجادة.

وقد كتب «فريد وجدى» ـ وحده ـ دائرة للمعارف، وهو عمل ضخم، شاق، لا ينهض به، إلا العصبة، أولو القوة فى العلم والمال. . .

وألَّف كتبًا أخرى، كـثيرة، متعددة البحوث، من أنفسـها، كتاب: «الإسلام دين عام خالد».

أسبغ الله شآبيب رحمته على «فريد وجـدى»؛ فقد كان أمة وحده. . . . كان يعـيش فى شبـه عزلة، ولكنَّ قلـمه كـان يصول ويجـول فى كثـير من المعـارك الفكرية. . . . وكان ـ لاتجـاهه الإسلامى ـ يتعـرض ـ كثيرًا ـ لهـجوم عنيف من الماديين والملحدين.

ولاتجاهه الإسلامى ـ أيضًا ـ كان عرضة للهجوم من حملة الأقلام من المسلمين، أمثال المرحوم الشيخ «رشيد رضا». فكثيرًا ما كـانت المعارك تقوم بينهما؛ لاختلافهما فى فهم بعض المسائل الإسلامية.

روايات جورجى زيدان

وقد كتبت ـ فى أيامنا تلك ـ روايات، تتناول التاريخ الإسلامى، كتبها «جورجى زيدان». وقد قرأت الكثير منها حين ظهورها.

وهذه الروايات لم تكتب من أجل إحقاق الحق، ولم تكتب لتعبر عن التاريخ الصادق، وإنما كتبت بقصد تشويه الصورة الإسلامية الجميلة، وتزييف الخلق العربى، الأصيل، الفاضل.

لم يكن «جورجى زيدان» مصريًّا أصلا، بل كان من هؤلاء النازحين، الذين آوتهم مصر، ورحبت بهم، أنزلتهم منزلة التكريم؛ من أمثال أصحاب «المقتطف». وأصحاب «الهلال». ومن أمثال «شبلى شمبل». و «يعقوب صروف». فلم يرعوا إلاًّ، ولا ذمة، ولم يقدروا حرمة ولا كرامة، وإنما غلبهم سوء الطبع، وساقهم لؤم النزعة، إلى الإساءة إلى الجو الإسلامى، بل وإلى الجو المسيحى ـ اللذين أفسحا لهم، مكانًا رحيبًا، يسوده الأمن، والاطمئنان ـ وتمثلت هذه الإساءة فى نشر «الإلحاد، والمادية، والشك». . . كما عاشوا فى كنف الاستعمار يسيرون فى ركابه، ويمكنون له فى الأرض، بالتشكيك، ونشر المادية، والإلحاد.

ومصر بلد مؤمن بطبيعته الطيبة، وفطرته السليمة، وكل من دعا فيه إلى المادية، والإلحاد، ـ إذا أمعنت النظر فى أمره ـ فستجده واحدًا من ثلاثة: إما نازحًا إلى مصر، وإما عميلاً للاستعمار، وإما عميلا لأعداء الإسلام على اختلاف مشاربهم، ومنابعهم. . . .

حصلت على «العالمية»

وكان خاتمة سنى الدراسة العالية بالقاهرة امتحان «العالمية». . . .

كان والدى رحمه الله تعالى يلازمنى، فى الأيام التى سبقت الامتحان.

وحان يوم الامتحان «الشفوى». وكان أصعب الامتحانات. . . .

كانت اللجنة تتكون من خمسة من كبار العلماء. . . . وكان للامتحان ـ فى أيامنا تلك ـ رهبة، وكان منه خوف، وكان للشيوخ هيبة. . .

وذهبت لأداء الامتحان. .

أما والدى فإنه قد أسرع إلى ضريح العارف بالله «الإمام أحمد الدرديرى» واعتكف بمسجده ـ يقرأ من القرآن الكريم ما تيسر، وبخاصة سورة «يس»: ويتضرع إلى الله أن يوفقنى، ويكتب لى النجاح. . .

ونجحت. . . والحمد لله

كان والدى ـ عليه رحمة الله ـ يحب أن يرانى مدرسًا بالأزهر؛ لقد كان ذلك يسعده، كل السعادة. . .

من الأزهــر إلى فرنسا

ولكنه فوجئ برغبتى الملحة فى السفر إلى «فرنسا»، لإتمام دراستى فى جامعاتها، إنه لم يكن يتوقع ذلك، ولا يدور شىء منه فى خلده. . .

وأخذ يثنينى عن عزمى بشتى الوسائل، ولكن محاولاته لم تفلح. . .

وأعلنت فى عزمٍ مصمم التمسك برأيى فى السفر، ولو لم يكن بيدى شىء من المال. وأخيرًا رضى والدى بعد لأى، ورافقنى إلى الإسكندرية ليودعنى. . . وركبت الباخرة لأول مرة. . .

الفصل الرابع

فى فرنسا

ياله من شعُور عميق بالسعادة! أن يجد الإنسان نفسه بين السماء والماء!! هذا الجزء من ملكوت الله الواسع الذى لا ترى له حدوداً، كأنه «اللانهاية» لقد كانت الأيام التى قضيتها فى الباخرة فترة من التأمل، عمقت الإيمان فى قلبى، وأذكت الشعور الدينى فى روحى ووجدانى. وفى كل كيانى.

في مارسيليا

ونزلنا «مارسيليا». ويبدو أن الوقت - الذى - نزلنا فيه - كان وقت انصراف العمال للغداء، لقد رأيت السرعة فى كل اتجاه، ونشاط الحركة فى كل ناحية، ورأيت النساء والفتيات وكأنهن يقفزن فى سيرهن من السرعة، كما كنَّ يتحدثن فى سرعة أيضًا، وهن فرحات مستبشرات، سعيدات، يضحكن فى سرور وبشاشة.

ولست أدرى لماذا تواردت - على ذهنى - صور من الشعر العربى، تصور الجمال فى النسَاء العربيات... وثب إلى ذاكرتى قول ذلك الشاعر الذى يعبر عن المثل الأعلى فى جمال المرأة، بقوله:

«مشى القطاة ونطقها إيماء»

إن المرأة - هنا - لا تمشى مشى القطاة، وليس نطقها - كما يقول الشعر - إيماء... فأين إذن «نؤوم الضحى»؟

إن كل شىء هنا يوحى بالنشاط، والحركة والسرعة.

والرجال فى سرعة دائبة، وحركة مستمرة ونشاط وحيوية دائمين.

وهذا الذى رأيته «فى مارسيليا» رأيته فيما بعد فى كل مكان توجهت إليه.

وصلى الله على «سيدنا محمد رسول الله» فإنه كان يسير، والصحابة من خلفه كأنهم يعدُون.

ورحم الله «عمر بن الخطاب»: كان إذا مشى أسرع.

وهل تنهض الأمم بالكسل والخمول؟

إن النشاط والحركة من صفات المؤمنين، فهما عنوان القوة:

«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

ومن آثارنا المتداولة:

«فى الحركة بركة» - «البركة فى البكور» وغير هذا كثير.

وأرجو الله - مخلصًا - أن يكتب لأمتنا أن تنفض عنها غبار الكسل والخمول، وأن يوجهها إلى أداء الأعمال فى أوقاتها وألا تؤخر عمل اليوم إلى الغد.

ورأيت فى مارسيليا أمرًا آخر - نحن أشد ما نكون حاجة إلى الانتباه له، وإلى الالتزام به، لأنه من شعب الإيمان - ذلك هو النظافة: نظافة الشوارع، ونظافة المحال، ونظافة الناس جميعًا ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا.

وتجتمع النظافة مع التنسيق والتناسق، فيبدو الجو كله فتنة للناظرين.

وديننا دين الجمال، والنظافة، والطهر: **«إن الله جميل يحب الجمال» «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»**. **﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾**.

والوضوء، والغسل وفرض طهارة الجسد، والثوب، والمكان للصلاة..

إن كل ذلك وكثيرًا غيره، يوجه المسلم فى قوة واستمرار إلى النظافة، بل وإلى التنسيق، ولكننا - بكل أسف - فى غفلة عن كل ذلك: شوارعنا، أطفالنا فى الريف وغيره، المحال التجارية، مكاتب الموظفين... إن مظاهر كل ذلك تسئ إلى الذوق، وإلى الدين.

إن إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان، ولكننا لا نتجه لإماطة الأذى عن الطريق، بل على العكس نحن الذين نقذف بالأذى فى الطريق.

«اللهم يسر لأمتنا التزام توجيهك»...

ولكن الأمر الهام الذى أحب أن يتنبه إليه الجميع، ويفكروا فيه، هو أننا - وكنا مجموعة، قضى بعضنا سنوات فى فرنسا من قبل - بمجرد أن نزلنا إلى

مارسيليا، وأخذنا نطوف هنا وهناك ننظر إلى واجهات المحال التجارية، وإذا ببعضنا يصل - وبسرعة - إلى إقامة علاقات ببعض الفتيات... والواقع: أنه إذا لم يسافر الطالب إلى البلاد الأجنبية - وهو محصن بالخلق وبالإيمان - فإنه - من المؤكد. ينزلق إلى الإثم... وقد بدا ذلك الأمر واضحًا، حينما طال بى المقام فى فرنسا:

امنعوا سفر الفتيات

إن الطالب ينزلق إلى الشرب، وإلى الصلة الآثمة فى مجال الجنس، وإلى التخلى عن كل الفروض الدينية. والأخطر من ذلك، سفر الفتيات إلى فرنسا: إن الفتاة تسافر - عادة - فيما بين العشرين، والخامسة والعشرين من عمرها... وهنا مكمن الخطورة، بل الخطورة نفسها بالنسبة للفتاة فى هذه السن... وما من شك فى أن تقاليدنا، وأخلاقنا، وديننا ومحيطنا كله ينهار أمام غريزة الجنس فى تلك السن. ولا ريب أن الفتاة سوف تقاوم - لأول مرة - رعاية لدينها، وخلقها، وشرفها...

ولكن الجو الذى تعيش فيه سيدفعها - حتمًا - إلى الصلة الجنسية: إنها تقاوم، ما فى ذلك شك، ولكن إلى متى.!!؟...سيدفعها الأصدقاء إلى «الخيالة» العابثة! ثم إلى الشرب! ثم ينتهى الأمر إلى السقوط.

إننى - هنا - لا أتحدث بالمنطق، وإنما أتحدث عن واقع محسوس، وما دام الأمر - كذلك - فإن كل نقاش فيه يتهافت أمام الواقع.

لقد شاهدت فتاة مسلمة من أسرة لها مكانتها الاجتماعية فى مصر تسقط مع شاب مسيحى، ويبدو أن أسرتها علمت فأرسلت إليها تستدعيها، فتمردت الفتاة على أسرتها، ولست أعلم المصير الذى انتهت إليه.

إن فى مصر كل ما تحتاج إليه الفتاة من علم، أما التخصص المتخصص فى بعض جوانب المعرفة، فنحن فى غنى عنه بالنسبة للفتيات، ونحن - بحمد الله - وصلنا فى جامعاتنا ومعاهدنا العليا إلى درجة كبيرة فى مختلف التخصصات.

وإنى هنا أهيب بوزارة التعليم العالى وبالآباء والأمهات، وبكل مستمسك بالفضيلة، وبكل داع لها، أقول لكل هؤلاء إن إرسال الفتيات إلى أوربا لا ضرورة حتمية تستدعيه، وإن ضرره أكثر من نفعه، بل يمكن أن يقال: إنه ضرر كله.

«ألا هل بلغت، اللهم فاشهد».

صليت الجمعة في باريس

وذهبت إلى باريس، ومررت بمكتب البعثات، ولكنى أخذت أتخبط فى طريقى - يمينًا، ويسارًا، شرقًا وغربًا - وكان من الممكن أن أضيق بالحياة فى باريس لأول عهدى بها، وكان من الممكن أن آخذ تذكرة للعودة والبواخر كثيرة. . . .

وجاء يوم الجمعة وأخذت أذرع شوارع الحى اللاتينى وما يحيط به بحثًا عن مسجد باريس الشهير، ودخلت المسجد وصليت الجمعة.

وما إن انتهت الصلاة، حتى رأيت شخصًا تلوح على وجهه سمات الطيبة يتجه نحوى، ثم يسألنى:

هل أنت مصرى؟

نعم.

هل تعرف محمود بك سالم؟

لم يسعدنى الحظ بذلك.

هيا إذن لأعرفك به

نشاط إسلامي في باريس

وذهبت معه، وقابلت السيد «محمود سالم» وأحسست عند لقائه بالارتياح إليه، والضيق به، فى آن واحد: كانت نظراته كأنها انعكست انعكاسًا تامًّا فى داخل نفسه، واستقـرت على أفكاره، فهى ترى الأفكار وحدها دون نظر إلى المخـاطبين، لم يكن حفيًّا فى تحيته، لكنه قال بدون مقدمـات، وهو يمد يده بطريقة آلية: موعدنا الليلة، فى المحطة الساعة الخامسة لنستقبل الأستاذ «خالد شلدريك».

فأخذت أسائل نفسى: من هو «خالد شلدريك»؟ ولم نستقبله؟

وهل من الضرورى أن أذهب لاستقباله؟

تلك أسئـلة دارت بخلدى؟ ولم أجد لهـا جوابًا، وكادت تعـوقنى عن الذهاب، ولكن حب الاستطـلاع، والشعور بالغـربة، الذى يدفع إلى حب التعـرف بالآخرين دفعانى إلى الذهاب فى الموعد المحدد.

وجاء «خـالد شلدريك» وكانت السيـارات معدّة، فـركبنا، وكنا جمـعًا غفـيرًا، ولكنى لم أكن أدرى إلى أين نحن ذاهبون.

ووصلنا إلى قصر فخم، ونزل الركب، واستقبلتنا سيدة أنيقة فى صالون غاية فى الفخامة والأبهة.

لقد كانت - كـما عرفت فيمـا بعد - أميرة «سرواك»، إحـدى ولايات ماليزيا، أميرة إنجليـزية أسلمت، وكتبت كتـابًا عن سبب إسلامهـا، نشرته على نطاق واسع، وفى هذا المجتمع الذى اختلفت الجنسـيات فيه، أدهشنى حقًّا: أن أرى كثيرين فيه، أسلمـوا بعد أن ولدوا على ديانات أخـرى، وهم الآن مـجتـمعـون لتحـية «خـالد شلدريك» الذى أسلم، وكرس حياته لنشر الإسلام.

وبعد أن تناولنا الشاى خرجنـا من جديد إلى قاعة محاضرات فسـيحة الأرجاء، ألقت فيـها الأميـرة محاضـرة عن الإسلام، وكان عـدد المستـمعين كـثيرًا يتـحدثون

ويتناقشون، وأدهشنى من جـديد أن أرى كثرة الذين أسلموا حينمـا درسوا الإسلام. ولكن هذه الحادثة كـانت السبب الذى أثار فى نفسى التـفكير فى كتابة كـتاب بعنوان «أوربا والإسلام» وسنتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله.

الدراسة في فرنسا

وانتظمت فى سلك الـدراسة ولم تكن سـهلة: اللغـة!! والكتـابة بهـا، والنقلة المفاجئة من جو الأزهر، إلى جو الدراسات الغربية. . . .

كل ذلك كان يمـثل عقبات لابد من تـذليلها، . . . . وذللت، وأصبحت الحـياة رخاء، ونجحت فى أول مادة وكانت «علم النفس».

والدراسة فى فرنسا، لا تجزئ المادة، لتدرسها فى سنوات عدة، وإنما تدرس المادة بأكملها، و «الليسانس» فى كلية الآداب، مـجموعة من المواد، لك الحرية فى أن تجدّ فى تحصيلهـا، حتى تقطع المرحلة الجامعيـة فى ثلاث سنوات مثلا، ولك أن تكسل، فتقطعها فيما شئت من سنوات، قد تصل إلى عشر.

وهو نظام جميل، فإن المسألة ليست سنوات، تدرس فى كل سنة مجموعة أجزاء من عـدد من المواد، وكذلك فى السنة الـتى تليهـا، كلا! وإنما تدرس المادة كـاملة، وحدها، أو مع مادة أخرى إذا شئت، على أن تكون المادة الأخرى كاملة أيضًا.

حتى إذا انتـهى الطالب من دراسة خـمس مواد تحددها نوعـية «الليـسانس» التى يريدها. نجح فى الليسانس، ولابدَّ فى الامتحان «لليسانس» من أداء امتحان فى لغة أخرى، مع اللغة الفرنسية.

والطالب - عادة - يختـار لغته، ومع ذلك فهو مضطر لإعادة الـنظر فيها، لأنه سيؤدى الامتحان أمام متخصصين.

وليس للغـات - من أجل الليـسانس - منـهج يدرس، وإنما هناك برامج توزع، ويتصرف الطالب فى شأن تحصيلها بكل حريته حسبما يريد.

لا يشترط أن يكون بين أوراق الطالب، شهادة إتمام الدراسة الثانوية العامة، أو ما يعادلها، عند أول عهده بالدراسة، ولا عند دخول الامتحانات. . . وإنما يطالب بها - فقط - عند دخول الامتحان الأخير الذى يحصل به على «الليسانس».

وهذه أوضاع فى غاية الحكمة، لأنها تعبير صادق، عن الوضع الذى يجب أن يكون عليه الجو الجامعى، وياحبذا لو أخذت به كليات الآداب فى جمهورية مصر العربية.

من الليسانس إلى الدكتوراه

بدأت الدراسة فى «فرنسا» منذ سنة ألف وتسعمائة واثنتين وثلاثين، على نفقتى الخاصة، ودام الأمر كذلك إلى سنة ألف وتسعمائة وثمان وثلاثين. . . حيث أُلحقت بالبعثة الأزهرية. وكنت قد فرغت من «الليسانس» تقريبًا. وبدأت أفكر فى رسالة «الدكتوراه».

فكرت فى موضوع يتصل «بفن الجمال»، ثم عرضته على المختصين، فَرُفِض، ففكرت فى موضوع يتصل «بمناهج البحث» وعرضته فرفض أيضًا. . . وأشهد أن أسباب الرفض، كانت مقنعة لى تمامًا.

دكتوراه في «التصوف الإسلامى»

وأخيرًا اتصلت بالأستاذ «مسينيون»، وتحدثنا طويلاً فى هذا الموضوع، وانتهى بنا الأمر إلى الاتفاق على أن أكتب عن «التصوف الإسلامى» من خلال دراسة «الحارث ابن أسد المحاسبى».

وكان هذا أول اتصال منظم، وجاد بالتصوف الإسلامى، بالنسبة لى.

وكانت كتب «المحاسبى» المطبوعة حينذاك نادرة. وطلبت المخطوطات التى بمكتبة الأزهر والمخطوطات التى بدار الكتب المصرية، وقد أعارنى الأستاذ «مسينيون» كل ما

عنده من مخطوطات «للمحاسبى» وكانت كثيرة وبدأت العمل.. ولكن الحرب العالمية الثانية قد اشتعل أوارها فى سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين، وبقيام الحرب اضطرب كل شىء بالنسبة لى.

فالأستاذ «مسينيون» قد استدعى للجيش، وارتدى الملابس العسكرية، وأصبحت مقابلته متعذرة، لا تتيسر إلا بمكتبه، فى وزارة الحربية، أو الخارجية، لست أذكر الآن أيهما على وجه التحديد، ولم يكن ذلك سهلاً، ناقشت الرسالة بعد أن انتهيت من إعدادها، وقدر الممتحنون لها درجة الشرف الأولى «الامتياز».

وأحب أن أشرك القراء فى شئ منها مما أعتز به.

ومن مقدمتها ننقل ما يلى:

١- يتسم التاريخ - سياسيًّا كان أو فكريًّا - بفترات تبدو فيها الحيوية الجارفة، وهذه الحيوية تتركز فى شخص أو أشخاص نابغين، يلقون بأنفسهم فى مجرى الحياة الهادئ الوديع، فتضطرب الحياة وتموج، ويعلو موجها وينخفض، وتصطرع القوتان - قوة الشعب الذى يتبع التقاليد، وقوة المصلحين النابغين فترة تطول أو تقصر، ثم تنحسر الأمواج، وتهدأ الأمور، فإذا بالحياة تأخذ لونًا جديدًا، وإذا بالقيم قد تغيرت، فى قليل أو فى كثير.

ومهما يكن من شئ، فإن عظماء الرجال - على أى وضع قضوا نحبهم - ، لا يتركون هذا العالم إلا وقد تركوا أثرًا لا ينمحى أبد الدهر.

وقد ينشأ النابغة، فيجد نفسه فى ميدان المعركة، مختارًا أو مضطرًّا، وتشرع نحوه الأسنة، وتتجه إليه السيوف المهندة، فيدافع، ويهاجم ويغلب، أو يغلب، ويترك، على كل حال، أثرًا.

ونشأ المحاسبى، وفى العالم الإسلامى قوتان هائلتان تصطرعان:

١- أهل السنة، ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل.

٢- المعتزلة، ولهم ممثلوهم فى البصرة والكوفة وبغداد.

وهذا الصراع بين المعتزلة وأهل السنة: صـراع طبيعى، لا يخلو من مثله دين من الأديان:

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين.

إنه النزاع الأبدى بين الذين يقولون: إن الدين نص تفسـره أسباب النزول واللغة والرواية، والذين يقولون إن الدين نص يفسره العقل ويوضحه.

ويظن بعض النـاس - للوهلة الأولى - أنه لا يمكن أن يكـون هناك طرف ثالث فى هذه الخصومة: فالإنسان إما نصى، وإما عقلى، ولا يحتمل الأمر حلاً ثالثًا.

ونشأ المحاسبى ليعلن هذا الحل الثالث.

لقد هاجم المعـتزلة هجومًـا عنيفًا، وألّف كـتابًا خاصًّا كان من بين أهدافه الرد عليهم، سماه «فهم القرآن».

لقد رأى فى نزعتهم العقلية طغيـانًا لا يتناسب ومقام العبودية، ورأى أن نزعتهم تحكّم العقل فى القرآن، وتجعله يسيطر على النص، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد فى الحقيقة وواقع الأمر: هو العقل لا الكتب المقدسة.

وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة، تتمثل فى دفاعهم المجيد عنه، ورد هجمات أعدائه، وتأييده منطقيًّا وعقليًّا، فإنه مما لا شك فيه: أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم: «ما وراء الطبيعة» فيفسر لنا غامضه، ويوضح لنا من أمره ما انبهم.

لابد إذن أن يخضع العقل للنص.

ومذهب المعتزلة إذن، لا يسير فى عالم: «ما وراء الطبيعة» على النهج الصواب.

هناك إذن: إفراط وتفريط.

والعبودية الحقة - فيما يرى المحاسبى - هى المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة، ودخل المحاسبى المعـركة، وسلاحه فيها: عبـودية حقة، وإخلاص لا حد له،

وتقوى تغمر كل الجوارح، ومن قبل ذلك ومن بعده: دراسة مستفيضة للدين: وسائله، وغاياته، جزئياته، وكلياته، التقوى والعلم إذن كانا سلاحه فى المعركة.

واحتدم النزاع، وكان لابد من أن يحتدم وثار الفقهاء على المحاسبى، وكان لابد أن يثوروا، فقد كان المحاسبى ينهج فى درسه منهجًا آخر غير الطريق العادى التقليدى.

كان يتحدث فى الإخلاص، فى الورع، وفى الزهد، وفى الخشوع الخالص لله.

وكان يتحدث فى هيبة الله، وجلاله وعظمته.

وكان يتحدث فى محبة الله، والأنس به، والقرب منه.

وكان حديثه عذبًا، طلقًا، ساميًا، فكانت تخشع له الأفئدة، وتلين له القلوب، وتسيل له الدموع، ويتذكر الناس مالله من فضل، فترق قلوبهم، ويتعاهدون على الاستقامة.

وملأت سمعة المحاسبى أرجاء بغداد، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف، وكلما أخذت شهرته فى الازدياد، كثر خصومه وشانئوه!!!

ولكنه كان يسير فى طريقه ثابت الخطى، لا يعنيه سوى أن يكون الله راضيًا عنه!!!

وتكشفت له الحجب، وزالت عنه المساتير، ووصل إلى المعرفة الحقة، فأعلن طريقها.

وطريقها ليس حسًّا، يخطئ، وليس عقلاً يضل، وإنما هو: بصيرة وضاءة، وروح صافية.

واستمرت الخصومة بين النصيين، ويمثلهم الإمام «أحمد»، والبصيريين ويمثلهم الإمام المحاسبى، والعقليين ويمثلهم المعتزلة.

ومن غريب الأمر: أن أية قـوة من هذه القوى لم تخر صريعـة، بل بقيت قوية، واستمرت فى كفاح ونضال، حتى يومنا هذا، تسلسلت فكرة المحاسبى، وتمثلت خير تمثل فى الإمام «الغزالى»، ثم فى بقيـة الصوفية من بعده حتى كان العـصر الحاضر، فكان يمثلها فى أسلوب جديد، وتعبير صادق، المرحوم: الشيخ «عبد الواحد يحيى»

الذى توفى فى بداية النصف الثانى من القرن الحاضر.

وتسلسلت فكرة الإمام «أحمد»، فتمثلت فى الإمام: «ابن تيمية» الذى وضع لها المنطق، وأرسى لها القـواعد والأصول، واسـتمرت قويـة إلى عهدنا الحاضـر، وكان يمثلها المرحوم: «الشيخ رشيد رضا» تمثيلاً قويًا.

وتسلسلت فكرة المعتزلة، راكدة حينًا، وقوية حـينًا آخر، حتى كان «جمال الدين الأفغانى»، فدفعها دفعًا قويًا إلى عالم الظهور.

وكان «الشـيخ محمـد عبده» من أهم العـوامل فى نشرها، ملطفـة خفيـفة تكاد تخفى، أو تكاد تلبس ثوب السلفية.

وحمل اللواء من بعـده، المرحوم: «الشيخ المراغى» والمرحوم: «الشـيخ مصطفى عبد الرازق» وفكرة «الإمام مـحمد عبده» تتمثل فـيهما حقيقـة، لا فى الشيخ «رشيد رضا»، كما يظن كثير من الناس.

لا تزال تلك القوى الثـلاثة تتصارع حـتى عهدنا هذا، ونعـتقد أنهـا ستستـمر، ذلك: أنها تمثل نزعات فطرية فى بنى الإنسان: فبعضهم واقعى يتجه إلى النص، ولا يريد، أو لا يمكنه، أن يسير إلى أبعد منه، وبعضهم: يحتفظ بشخصيته، قوية جارفة لا تلين، فهو عقـلى أو اعتزالى. وبعضهم: رقيق الشعـور، مرهف الحس، ملائكى النزعة، فهو بصيرى أو صوفى.

نزعات ثلاثة، تقوم على فطر مـختلفة، وهذه الفطر ستستمـر فى بنى البشر، ما دام على وجـه الأرض أفراد من النوع الإنـسانى، ومن هنا كـان خطأ هؤلاء الذين يحـاربون التصوف، أو الاعتزال، أو النصيين، على أمل أن يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات.

٢- روى صاحب «طبقات الصوفية» بسنده، عن «الحارث بن أسد المحاسبى» بسنده، أن رسول الله ﷺ، قال: «**أثقل ما يوضع في الميزان: حسن الخلق**».

ولقد وضع المحاسبى هدفًا له فى الحياة يسعى إلى تحقيقه، هو: «حسن الخلق» لقد وضعه هدفًا يعمل على تحقيقه فى نفسه، ووضعه هدفًا يعمل على تحقيقه فى مجتمعه.

أما فيما يتعلق بنفسه، فإنه أخذها بتحقيق صفة العبودية، على أساس من القرآن الكريم، والسنة الشريفة، لا يحيد عنه.

وإنه ليعبر عن شعاره فى ذلك، فيقول هذه الكلمة التى تصفه حالاً ومقالاً:

«إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجيب داعى الله؟».

ولم يجهل المحاسبى قدر الله، فلم يستعن بشىء دونه سبحانه.

وأما فيما يتعلق بالمجتمع، فإن المحاسبى أخذ فى نشر حسن الخلق فيه بسمته، واتباعه للسنة، وبدروسه التى كانت تفعل الأعاجيب فى القلوب، وبكتبه التى تبين حسن الخلق: وسائل، وغايات، والتى لا يزال لها إلى الآن أريج عطرى، يتجدد على مرّ الزمن، فيهدى الحيارى، وينير الطريق أمام السالكين.

٣- ولكن من هو «المحاسبى»؟ وما لنا نتعجل، فنتحدث عن المحاسبى فى القمة قبل أن نبدأ معه من البداية؟

إنه «الحارث بن أسد»، وكنيته: «أبو عبد الله».

وقد نشأ بالبصرة، واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها فى يقين جازم، ثم ذهب إلى بغداد، ويبدو أنه ذهب إليها فى سن مبكرة، واستقر به المقام فيها.

متى ولد؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده، إذ أن الكتب القديمة التى تحدثت عنه، لم تذكر ذلك، بيد أن الملابسات ترشد إلى أنه ولد - على التقريب - فى العقد السابع من القرن الثانى الهجرى.

أما وفاته: فإن الكتب التى أرخت له تحدد سنة٢٤٣هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة.

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئًا، وقد يمكننا أن نقول: «استنتاجًا» إنه قضى طفولته فى شئ من اليسر والرخاء، ذلك أن والده حينما توفى ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم.

ويروى المؤرخون أن المحاسبى حينما توفى والده، لم يأخذ من هذه الثروة شيئًا تورعًا، ذلك أن والده كان يقول بالقدر، أى أنه كان قدريًا، يدين بمذهب المعتزلة ويقول المؤرخون لحياة المحاسبى: إنه لم يستسغ أن يشترك فى الميراث، توسعًا فى تطبيق القاعدة الإسلامية التى تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين.

ولكن «المحاسبى» - فيما يبدو - امتنع عن ذلك لمجرد الورع، والزهد فيما تجره الثروة، وتستتبعه من تفكير فيها، وتدبير لها، وتنمية وحفظ. هذه الحادثة ترشد إلى أمور:

الأمر الأول هو: أن أسرة «المحاسبى» كانت أسرة ميسورة.

الأمر الثانى: هو أن والد «المحاسبى» كان من الذين اشتركوا فى الثقافة الدينية والجدل الكلامى، وأسهم فى ذلك بنصيب، وحدد المعسكر الذى يقف جنديًا فى جيشه.

وما من ريب فى أن العامة حينئذ لم يكونوا فى صف المعتزلة، وما كان الذى يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختبار، وأن الطريق التقليدى الذى يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق «أهل السنة».

والأمر الثالث الذى ترشد إليه الحادثة: هو ورع المحاسبى الذى حمله على أن يزهد فى الميراث مع حاجته إليه: تورعًا وتقوى.

ونبأ آخر نتبين منه شيئًا عن شخصية المحاسبى يقول الجنيد: كنت كثيرًا أقول: «للحارث»: عزلتى أنسى، فيقول: كم تقول عزلتى أنسى؟

لو أن نصف الخلق تقربوا منى، ما وجدت بهم أُنسًا، ولو أن نصف الخلق الآخر، نأى عنى ما استوحشت لبعدهم.

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبى، والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التى أحاطت «بالمحاسبى»، وموقف «المحاسبى» منها، وحديث تلاميذه عنه - وإن كان نادرًا - كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية.

ومما يستأنس به تأييدًا للقصة السابقة، وإشارة إلى ما «للمحاسبى» من شخصية إيجابية قوية، وبيانًا عابرًا عن بعض أساليبه فى تأليف كتبه، ما رواه الجنيد أيضًا بقوله:

كان «الحارث المحاسبى» يجئ إلى منزلنا، ليقول: اخرج معى نصحر(أى نذهب إلى الصحراء) فأقول له: تخرجنى عن عزلتى وأمنى على نفسى، إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات؟ فيقول:

اخرج معى، ولا خوف عليك، فأخرج معه، فكأن الطريق فارغًا من كل شئ، لا نرى شيئًا نكرهه، فإذا حصلت معه فى المكان الذى يجلس فيه قال لى:

سلنى:

فأقول له: ما عندى سؤال أسأله.

فيقول: سلنى عما يقع فى نفسك.

فتنثال على الأسئلة، فأسأله عنها، فيجيبنى عليها للوقت.

ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتابًا.

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبى لم يكن يخشى: «الطرقات والآفات ورؤية الشهوات»، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت للفكر، كلا، إنه يجابه الحياة، محاولاً السير بها إلى ما يراه حقًا وإصلاحًا.

أما فيما يتعلق بطريقته فى التأليف: فإنه يعمل أحيانًا على تلبية ما يرغب المتحدثون فى الإجابة عنه، وهى طريقة حية: إنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأى الصريح فيه، إنها تتصل بالحياة الواقعية.

ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق، فإن بعضها كان إسهامًا فى الحركة المقاومة لحركة الاعتزال، وكان بعضها حلقات فى التخطيط الذى رسمه «المحاسبى» للإصلاح الأخلاقى فى المجتمع.

٤- على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى، فتحدثنا عن «المحاسبى» فى القمة، ولم نتدرج معه تدرجًا طبيعيًا.

ولنعد إلى «المحاسبى» أول مقدمه بغداد: كان ذلك فيما يبدو فى سن مبكرة نسبيًا، وكانت بغداد حينئذ تموج بمختلف التيارات الفكرية:

ثقافة يونانية وافدة، تريد أن تأخذ حق الإقامة، سيدة متغلبة.

وثقافة فارسية يحاول نشرها الفرس، بما لهم من تأثير ونفوذ، وبما لهم من مال وثراء، وبما لديهم من ترف فكرى، وبما فى نفوسهم من كبت لزوال ملكهم، يحاول أن يتنفس - شاعرًا أو غير شاعر - فى صورة ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة.

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى، تريد أن تجد حلا للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية.

وثقافة إسلامية بحتة، تجاهد فى أن تفوز بقيادة المجتمع إلى الهداية الربانية والرشاد الإلهى.

وجاء «المحاسبى» بغداد متعلمًا، ومتثقفًا، أو مستزيدًا من العلم والثقافة: يبتغى السير على السنن المستقيم.

وأخذ فى الدرس فى جد واجتهاد: فتشعبت به الطرق، وتجاذبته الثقافات المختلفة، تحاول كل منها، أن تستأثر به وحدها، ولكل منها مغرياتها، ولكل منها منطقها.

ووقف «المحاسبى» مستوعبًا، متأملا، مترويًا.

هل طال به الوقوف؟

متى خرج من تأمله؟

متى استقر به الاتجاه؟

ذلك ما لا نعلمه إذا نظرنا إلى الزمن.

بيد أن «المحاسبى»، وإن لم يعن بالتأريخ لحياته، تأريخا زمنيًا، فإنه ترك لنا أثرًا نفسيًّا، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية، وعن أسبابها، وعن كيفية خروجه منها.

وهذا الأثر نعتبره، أساسًا لكتاب: «المنقذ من الضلال»، راسمًا للإمام «الغزالى» تخطيطه، موجهًا له إلى كتابته، بل وراسمًا له الطريق فى حياته الروحية.

ولعل التشابه بين هذا النص الذى نثبته الآن، وكتاب: «المنقذ من الضلال» يجعل بعض الناس يستنتج أن التشابه قوى بين «المحاسبى»، «والغزالى» فى حياتهما، ولنا فى ذلك رأى سنذكره فيما بعد إن شاء الله.

ولأهمية هذا النص بالنسبة «للمحاسبى» ولعصره، وبالنسبة لصلته بكتاب المنقذ من الضلال، صلة وثيقة نثبته بأكمله، وإن كان فيه بعض الطول، وقد كتبه المحاسبى مقدمة لكتابه: «الوصايا» الذى طبع أخيرًا بالقاهرة، يقول «المحاسبى» - فى مفتتح كتابه الوصايا - بعد مقدمة موجزة:

وأما بعد: فقد انتهى إلينا: أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها: فرقة ناجية، والله أعلم بسائرها.

فلم أزل، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة، بإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل، بتأويل الفقهاء، وتدبرت أحوال الأمة، ونظرت فى مذاهبها، وأقاويلها، فعقلت من ذلك ما قدر لى. ورأيت اختلافهم بحرًا عميقًا، قد غرق فيه ناس كثير، وسلم منه عصابة قليلة، ورأيت كل

صنف منهم يزعم أن النجاة فيمن تبعهم، وأن الهلك من خالفهم، ثم رأيت الناس أصنافًا: فمنهم العالم بأمر الآخرة: لقاؤه عسير، ووجوده عزيز.

ومنهم الجاهل: فالبعد عنه غنيمة، ومنهم المتشبه بالعلماء: مشغوف بدنياه، مؤثر لها.

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين، ملتمس بعلمه، التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا.

ومنهم متشبه بالنساك، متجرٌ بالخير، لا غناء عنده، ولا بقاء لعلمه، ولا معتمد على رأيه.

ومنهم حامل علم، لا يعلم تأويل ما حمل.

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقى.

ومنهم متوادون: على الهوى يتفقون، وللدنيا يتبادلون، ورياستها يطلبون.

ومنهم شياطين الإنس: عن الآخرة يصدون، وعلى الدنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفى الاستكثار منها يرغبون، فهم فى الدنيا أحياء، وعن العرف موتى، بل العرف عندهم منكر، والسوء معروف، فتفقدت فى الأصناف نفسى، وضقت بذلك ذرعًا.

فقصدت إلى هدى المهتدين، بطلب السَّداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر، وأطلت النظر، فتبين لى فى كتاب الله تعالى، وسنة نبيه، وإجماع الأمة أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث فى العمى!!!

فبدأت إسقاط الهوى عن قلبى، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتادًا لطلب الفرقة الناجية، حذرًا من الأهواء المردية، والفرقة الهالكة، متحرزًا من الاقتحام قبل البيان، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى.

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل، أن سبيل النجاة: فى التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه والورع فى حلاله وحرامه، وجميع حدوده، والإخلاص لله تعالى بطاعته، والتأسى برسوله ﷺ طلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء فى الآثار، فرأيت اجتماعًا واختلافًا، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن: عند العلماء بالله وأمره، وأن الفقهاء عن الله، العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه، المتأسين برسوله ﷺ، المؤثرين الآخرة على الدنيا، أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين.

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم والموصوفين، أقفو آثارهم، وأقتبس من علمهم فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت علمهم مندرسًا، كما قال رسول ﷺ:

«بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا، كما بدأ فطوبى للغرباء» وهم: المنفردون بدينهم.

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأنقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفاجئنى على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة، فانكمشت فى طلب عالم، لم أجد لى من معرفته بدًا، لم أقصر فى الاحتياط ولم أن فى النصح.

فقيَّض لى الرءوف بعباده، قومًا وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة على الدنيا، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى، ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمة، لا يرجون أحدًا فى معصيته، ولا يقنطون أحدًا من رحمته.

يرضون أبدًا بالصبر على البأساء والضراء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، يحببون الله تعالى إلى العباد، بذكرهم أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى.

علماء بعظمة الله تعالى، وعظيم قدرته، وعلماء بكتابه وسنته، فقهاء فى دينه،

علماء بما يحب ويكره ورعين عن البدع والأهواء، تاركين التعمق والإغلاء، مبغضين للجدال والمراء، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى، مخالفين لأهوائهم، مالكين لجوارحهم، ورعين فى مطاعمهم وملابسهم، وجميع أحوالهم، مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، مجتزئين بالبُلغة من الأقوات، متقللين من المباح، زاهدين فى الحلال، مشفقين من الحساب، وجلين من المعاد، مشغولين بشأنهم، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم: لكل امرئ منهم شأن يغنيه.

علماء بأمر الآخرة، وأهاويل القيامة، وجزيل الثواب، وأليم العقاب، ذلك أورثهم الحزن الدائم، والهم المضنى، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها.

ولقد وصفوا للآداب صفات، وحددوا للورع حدودًا، ضاق لها صدرى، وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى، ولا يقوم بحدوده مثلى، فتبين لى فضلهم، واتضح لى نصحهم وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة والمتأسون بالمرسلين، والمصابيح لمن استضاء بهم، والهادون لمن استرشدهم فأصبحت راغبًا فى مذهبهم، مقتبسًا من فوائدهم، قابلا لآدابهم، محبًّا لطاعتهم لا أعدل بهم شيئًا، ولا أؤثر عليهم أحدًا.

ففتح الله لى برهانه، وأنار لى فضله، ورجوت النجاة لمن أقر به أو انتحله، وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجبًا على.

فاعتقدته فى سريرتى، وانطويت عليه بضميرى، وجعلته أساس دينى، وبنيت عليه أعمالى، وتقلبت فيه بأحوالى.

وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك، وأنى لا أدرك شكره أبدًا.

ووجد «المحاسبى» نفسه حينئذ فى معسكر أهل المنة على وجه العموم، وفى تيار الصوفية منهم، على وجه الخصوص.

ولم يكن «المحاسبى»، ذا طبيعة سلبية، فكان لابد من أن يدخل المعركة، ودخل المعركة فى قوة قوية، مسلحًا بالعلم والتقوى.

ومن أجل ذلك: كان ذا أثر مزدوج.

لقد أثر باعتباره قدوة وأسوة.

وأثر باعتباره عالمًا باحثًا.

أما كتبه: فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف، حسبما روى السبكى فى «طبقات الشافعية»، والمناوى فى: «الكواكب الدرية».

وهذه الكتب - فى أغلبها الأعم - إنما هى فى هداية النفوس، وترقيق القلوب، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح: إنها فى أغلبها فى علم التصوف والسلوك.

يقول «التميمى» - كما جاء فى الكواكب الدرية - عن «المحاسبى».

وهو إمام المسلمين فى الفقه، والتصوف، والحديث والكلام.

ولقد كتب «المحاسبى» فى هذه العلوم جميعها، بيد أن مسحته الظاهرة، ونزعته الواضحة والكثرة الكثيرة من كتبه، إنما كانت فى التصوف والكلام.

أما كتبه فى الكلام فقد بقى منها أهم كتبه فى هذا الموضوع، وهو كتاب:

«فهم القرآن» حققه ونشره حديثًا الدكتور «حسين القوتلى» بلبنان، ومنهجه فى الكتاب، يفهم من عنوانه، إنه كان يرجع إلى القرآن فى الرد ويتخذ منه مرشدًا وهاديًا، ولعل السبب فى إهمال كتبه الكلامية وفقدها: هو حملة الإمام «أحمد بن حنبل» عليها.

يقول «الخطيب البغدادى»، فى كتابه: «تاريخ بغداد» جزء ٨ص١١٤: «وكان أحمد بن حنبل، يكره «للحارث» نظره فى الكلام، وتصنيفه الكتب فيه، ويصد الناس عنه» ويذكر هذه المسألة الإمام «الغزالى» فى كتابه: «المنقذ من الضلال» ويفصل الرأى فيها، ويحسم المسألة بحل موفق فيقول:

«لقد أنكر «أحمد بن حنبل»، على «الحارث المحاسبى» - رحمهما الله - تصنيفه فى الرد على المعتزلة.

فقال الحارث: «الرد على البدعة فرض».

فقال أحمد: نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولا، ثم أجبت عنها، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه، ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه؟ يقول الإمام الغزالى:

وما ذكره «أحمد»: حق: ولكن فى شبهة لم تنتشر، ولم تشتهر، فأما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية» اهـ.

ولقد أصاب الإمام التوفيق فى رأيه.

وما من شك فى أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر بدعتهم وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة.

ومهما يكن من شئ، فقد كان الإمامان: «أحمد والمحاسبى» متعاصرين، وحدث بينهما اختلاف فى الرأى، يتعلق بالكتابة فى المسائل الكلامية، وحمل الإمام «أحمد» على كتب الإمام «المحاسبى» فى علم الكلام، فقل تداول الناس لها - فيما يبدو - واختفت شيئًا فشيئًا، ولعل بعضها لا يزال موجودًا، ولعل من المحتمل أن يكشف المستقبل عنها كما حدث ذلك بالنسبة لكتاب: «فهم القرآن» على أن رأى «المحاسبى» فى المسائل الكلامية معروف، تحدث عنه «الشهرستانى» وغيره، ممن كتبوا فى الملل والنحل، وهو الرأى السلفى، ولم تكن حملة الإمام «أحمد» عليه، لرأيه وعقيدته، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان، وإنما كان إنكار الإمام «أحمد» عليه للأسلوب والطريقة التى ينصر بها الدين.

وما من ريب فى أن ما قام به الإمام «المحاسبى» فى الرد على المعتزلة وغيرهم، من أهل الانحراف: إنما هو فى الوقت نفسه انتصار للإمام «أحمد بن حنبل»، وتقوية له، وعون على بلوغه غايته ورضى الله عنهما.

أما كـتبـه فى أدب النفس وتزكيـتهـا، وفى الإنابة إلى الله، والرجوع إلـيه وفى الرعاية لحـقوقه، وفى التصوف علـى وجه العموم، فقـد بقى منها كثيـر، عرفنا منه جملة صـالحة، لا تزال مخطوطة، وطبع البعض فى أوربا والقـاهرة، وسوريا، ومن كتبه المخطوطة فى دور الكتب:

١- كتاب المسائل فى الزهد.

٢- فصل من كتاب العظمة.

٣- كتاب فى المراقبة.

٤- أحكام التوبة.

٥- كتاب العلم.

٦- كتاب الصبر والرضا.

ومن كتبه المطبوعة:

كتاب التوهم:

أول ما طبع للمحاسبى: «كـتاب التوهم» طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٧م وقد عنى الدكتور أ ح. أربرى - بتحـقيقه وكتب مقـدمته الدكتور «أحمد أمـين»، وفى المقدمة يقول عن الكتاب: «نحا فيه منحىً طريفًا، يدل عليـه اسمه، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبـار فى الخوف ،والرجاء، كمـا فعل غيره، بل اسـتعمل توهمه - وبعـبارة أخرى خـياله - فى وصف شعـور أهل الجنة، وأهل النار، وما يلقون من : سـعادة وشقاء، ونعـيم، وعذاب، وأسلس لخياله القيـاد، فتخيل ما تخيل وصـور ما صور؛ فهى لوحة جـميلة لفنان أجاد ألوانها، أو رواية رائعة لكـاتب جمل منظرها، وفصل مواقـفها، وصـقل لغتهـا، حتى يؤثر بالحقـيقة التى تتـضمنها فى نفـوس القارئين، والسامعين، أكبر الأثر وأبلغه».

رسالة المسترشدين:

وطبع له فى حلب «رسالة المسترشدين» حققه وخرج أحاديثه، وعلق عليه، «عبد الفتاح أبو غدة».

وهذه الرسالة اللطيفة الحجم، يوجه فيها «المحاسبى»، الإرشاد للمسترشدين، الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الألباب، العالمين بالله وبأمره... ومنهاج ذوى الألباب - كما تحدده الرسالة - إنما هو رعاية مصادر الشريعة، من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة، وهذا هو الصراط المستقيم، الذى دعا الله إليه عباده، وقال عز وجل:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ**».

والرسالة إنما هى إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج، فهى تتحدث عن التوبة والتقوى والخطرات والخوف من الله، والصبر والرضا، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله، السالكين إليه.

كتاب الوصايا:

وطبع له فى القاهرة أخيرًا: «كتاب الوصايا»، تحقيق وتقديم: «عبد القادر أحمد عطا»، والعنوان مكتوب هكذا: «الوصايا: أو النصائح الدينية، والنفحات القدسية، لنفع جميع البرية».

وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق، وإن كان على صورة أوسع، وبأسلوب بين الحدة، وهو أقل تعمقًا وجزالة من أسلوب الكتاب السابق.

كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل:

وكتاب الرعاية: هو أكبر الكتب التى بين أيدينا من كتب «المحاسبى»، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة، وربما لا يوجد فيما فقد من كتبه ما هو أكبر منه،

ويقع في حوالي أربعمائة وستين صحيفة وهو على كل حال أهم كتبه، في نظر القدماء والمحدثين، حتى لقد عرف به، وإذا لم يذكر أحد المؤرخين القدماء من كتب «المحاسبي» إلا كتابًا واحدًا: فإنه يكون الرعاية، وهو بالنسبة «للمحاسبي»، كإحياء علوم الدين بالنسبة للغزالي، وقد حاول المحاسبي أن يشرح فيه الطريق الذي يحقق الرعاية لحقوق الله تعالى.

وقد بلغ في تحليل نزعات النفس، ونزعات الهوى، حدًا لا يجاري، يقول الأستاذ «مسينيون» عن هذا الكتاب:

إن المحاسبي: سما فيه بالتحليل النفسي إلى مرتبة لا تجد لها مثيلا في الآداب العالمية إلا نادرًا.

وحينما قرأه المرحوم: «الشيخ زاهد الكوثري»، قال معبرًا عن حقيقة ظاهرة:

لقد كان أثر الإمام المحاسبي على الإمام «الغزالي» كبيرًا، لقد تبطن الإمام «الغزالي» كتاب الرعاية، في كتابه: الإحياء.

المسائل في أعمال القلوب والجوارح:

وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة، فحققه الأستاذ «عبد القادر أحمد عطا»، والكتاب بحوث مفصلة في الكلام عن إدخال السرور على المسلم، والإسرار بالعمل والجهر به، وطلب الشهرة بالعمل، أو لزوم المداراة والكلام عن الغرور، والحديث عن النوافل، وأعمال القلوب، والمواعظ المطلوبة، والجدال المرذول، والتفويض إلى الله في كل الأمور، والحديث عن النفس، وألوان الغفلة التي تعتريها، وحدود النظر الجائز من الحرام وختمه بحديث عن النذور.

وأسلوب الكتاب أسلوب علمي تحليلي، يسري فيه الحماس، وتبدو روح «المحاسبي» اليقظة المتوثبة..

كتاب أدب النفوس:

وهو كتاب يفهم موضوعه من عنوانه، إنه في أدب النفوس وفيه يشرح

«المحاسبى» الطريق التى يتخـذها الإنسان لتهذيب نفسه وتزكيتـها وهو فى رسمه لهذه الطريق يتبع السنن الإسلامى.

وإذا كان يرسم الطريق فإنه أيضًا يتحدث عن الـصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الإنسان حتى يكون فى مرضاة من الله وفى نعمة منه.

كتاب فهم القرآن:

ولقد كان يظن، إلى عهد قريب، أن كتـاب «فهم القرآن» قد فقد، وكان الأسف عليه شديدًا، ثم كان السرور حينما أعلن أن الكتاب مـوجود وحينما أخرجه الدكتور «القوتلى» فى ثوب أنيق مـعلقًا عليه، ومـقدمًا له، ونشـره مع كتاب «مائيـة العقل» للمحاسبى أيضًا فى مجلد واحد فجزاه الله خيرًا.

أثر «المحاسبى» في الفكر الإسلامي:

إن تأثير «المحاسبى» فى الأجيـال التالية له: لا ينكر، إنه من الواضح، أن تلميذه الأكبر - وإن لم يلتق به - كان الإمام «الغزالى».

إن الإمام «الغزالى»، يعترف بأنه قرأ كتب «الحارث المحاسبى».

قـال ذلك فى كـتابه: «المـنقذ من الـضلال» ولقـد قـرأ أيضًـا سيـرة «الحـارث المحاسبى»، وتحدث عن الخلاف الذى كان بينه وبين الإمام «أحمد بن حنبل»، ثم إنه نقل عنه فى كتابه: «الإحياء» كثيرًا من الآراء والنصوص.

وفى كتاب: «الإحـياء» يقول عنه الإمام «الغزالى»، دون تحـفظ ولا استثناء، هذا التقدير الهائل «المحاسبى» خير الأمة فى علم المعاملة.

وله السبق على جـميع الباحثـين عن عيوب النفس، وآفات الأعـمال، وأغوار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه.

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام «الغزالى»، كان له أثر كبير فى كتاب الإحياء، فإن كتاب الإحياء: تضمن تقـريبًا كتاب: «الرعاية»، وكلمة الشيخ «زاهد الكوثرى»، رحمه الله، سبق أن ذكرناها إذ يقول:

«لقد تبطن الإمام «الغزالى»، كتاب الرعاية فى كتابه الإحياء».

ولكن أثر «المحاسبى» كان أيضًا كبيرًا قبل الإمام «الغزالى»، يقول السبكى عنه:

«عالم العارفين فى زمانه، وأستاذ السائرين، الجامع بين علمى الباطن والظاهر»، ويقول «الشعرانى» عنه: «إنه: أستاذ أكثر البغداديين».

لقد كان رحمةُ الله عليه أستاذ أكثر البغداديين، وعالم العارفين فى زمانه، وامتد تأثيره إلى الإمام «الغزالى» وإلى الصوفية من بعده، استمر هذه التأثير قرنًا، فقرنًا، واستمر تقدير علماء الصوفية له قرنًا، فقرنًا، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى، وكان المناوى صاحب التآليف الكثيرة المشهورة المعروفة كتب عن «المحاسبى» فى كتابه: «الكواكب الدرية» يقول:

«المحاسبى» البصرى: عَلَمُ العارفين فى زمانه، وأستاذ السائرين فى أوانه، عالم سار فينا فضله، وصوفى طار نبله، برع فى عدة فنون، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون، وأحيا القلوب بوعظه، وشنف الأسماع بدُرّ لفظه، تصانيفه مدونة مسطورة، وأقواله مبوبة مشهورة، وأحواله مصححة مذكورة، وكان فى علم الأصول راسخًا راجحًا، وعن الخوض فى الفضول جانحًا، وللمخالفين الزائفين قامعًا وناطحًا، وللمريدين مربيًا وناصحًا.

قال «التميمى»:

«هو إمام المسلمين فى الفقه، والتصوف، والحديث، والكلام».

وقال غيره:

«وله المصنفات النافعة الجمة، بحيث تبلغ نحو مائتى مؤلف، وناهيك برعايته، وكتبه فى هذه العلوم، أصول لمن صنف فيها».

وقال فى الإحياء:

«المحاسبى» خير الأمة فى علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال وأغوار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه».

على أن التقدير الذى نحب أن نعيد تسجيله هنا: هو ما كتبه، الأستاذ «لويس مسينيون» عن كتاب: «الرعاية فى كتابه مصطلحات التصوف»:

إن «المحاسبى»: سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلا فى الآداب العالمية إلا نادرًا.

رحم الله تعالى، الإمام «المحاسبى» رحمة واسعة، ونفعنا بما تركه لنا من تراث روحى مجيد.

التوكل:

وننقل هنا أيضًا من الرسالة موضوع «التوكل» وذلك لما يحصل فيه من جدل بين الناس الذين يبحثون فى موضوع الروحانيات:

التوكل يفيد ثقة المؤمن المطلقة فى الله، ويقينه بأن أى الأعمال فى هذه الدنيا لا يغير من المصير المحتوم.

وهو مفهوم يمكن تطبيقه فى سائر الأحوال، ويؤمن به المسلمون جميعًا.

وحديث التوكل فى المؤلفات الإسلامية، يشتمل دائمًا وفى كثير من التفصيل على مسألتى المال والكسب والحلال. هل يتعارضان مع التوكل؟

وإذا وثق العبد فى الله، وآمن بمصيره، أى: أيقن بأنه صائر - لا محالة - إلى ما قدره له الله منذ القدم، وأنه نائل نصيبه المحتوم، من الخير أو الشر، ومن الغنى أو الفقر، بإرادة الله، وأن العمل - قل أو كثر - لن يغير شيئًا مما سوف يكون، ومما كتبته عليه يد الله من قبل أن ينشئ العالم، إذا أيقن المؤمن بذلك كله، فكيف لا يكون سعيه إلى ما ضمنه له الله من رزق نقصًا فى العبادة، وإهمالاً لحقوق الله؟

ولقد أثارت المسألة جدلاً مستفيضًا بين الكثيرين من الصوفية، والفقهاء.

وكتاب «تلبيس إبليس» يبين مدى ما وصل إليه هذا الجدل، من عنف وحدة.

ونريد قبل كل شئ إيضاح بعض جوانب موقف الإسلام من القضية.

إن المال يحتل مكانًا هامًا من نصوص القرآن، والأحاديث، والفقه.

ففى القرآن نجد تنظيمًا وتشريعًا للميراث، والأحاديث تكمل نصوص القرآن فى ذلك؛ وكل كتاب فقه إسلامى يتضمن فصلا مطولاً فى الإرث.

كذلك نجد فى القرآن والأحاديث تشريعًا للزكاة، وللوصية وللصدقة، وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالمال.

اعترف الإسلام - إذن - بمنافع المال، وأهمية دوره، فلا غرابة فى أن يحث على العمل، وهو وسيلة اكتساب المال. وأغلب أصحاب الرسول ﷺ كانوا من ذوى المهن أو الوظائف.

ولكن القول بأن للمال أهمية زائدة فى المفاهيم الإسلامية خطأ فاحش.

فالمال، مهما كان أمره، ليس فى الواقع إلا جزءًا من القيم المادية الفانية فى الحياة الدنيا، والسعى لاكتسابه وإن سمح به الدين وحث عليه بل أوجبه فإنه لا يدانى فى شئ مسعى الإنسان إلى اكتساب القيم الروحية، التى لا تفنى، والمتعلقة بالعالم الآخر.

وعلينا ألا ننسى أن الإسلام دين، وأن «محمدًا» ﷺ نبى، ولا يمكن أن يكون للدين وللنبى ﷺ هدف، إلا ما سما إلى الله والآخرة.

والمال - فى حد ذاته - ليس بذلك، والهدف الحق للإسلام والنبى ﷺ، نجاة الإنسان، ومن أجل هذا كان الاهتمام بالمال منصبًا على تحويله إلى أداة لخير الإنسان، وعلى تحويل شهوته الدنيئة فى قلب الإنسان إلى التراحم، والإنفاق فى سبيل الله.

وهذا وهو السبب لما نجده فى القرآن من وعيد متكرر، للذين يكنزون الذهب والفضة، أو الذين يلهيهم حب المال عن القيام بحقوق الله.

ولعل «أبا ذر» الذى قيل عنه إنه أول شيوعى فى الإسلام لم يبتعد كثيرًا عن المفاهيم الإسلامية، حين كان يحمل فى مواعظه على بذخ بلاط «معاوية» وإسراف الأمراء.

وكان شعاره الآية القرآنية التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

فإنفاق المال فى أغراضه الصحيحة، لا يمكن أن يكون إلا وسيلة لبلوغ الأهداف العليا الرفيعة، واستخدامه فى أعراض دنيا يؤدى بالإنسان إلى الانسياق فى سبيل الشيطان، ولا بد للإسلام كدين أن يذمّه فى هذه الحال.

والعمل لاكتسابه مسموح به، بل هو مطلوب مادام حلالاً.

أما العمل لاكتسابه من غير الطرق الحلال، فهو أمر ينهى عنه الإسلام فى قوة، ويتوعد من يقوم به، بشر العقاب فى الدنيا والآخرة.

والخلاصة هى أن الله أمر بالضرب والمشى فى مناكب الأرض، والسعى فى أرجائها، لاكتساب المال، ولقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر، وقال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» ولكن ذلك كله مشروط بأن يكون الكسب حلالاً، وألا يتسم بالجشع، أو بالحسد، أو بالحرمة.

ولنعرض الآن، وعلى ضوء ما تقدم، موقف المحاسبى من هذه المسألة.

إنه يقول فى كتابه «المكاسب».

فأخبر - جل ثناؤه - بقسمة الرزق بين خلقه، وتوليه ذلك فى مواضع - من

كتابه جل وعز - كثيرة، ثم دعا الخلق سبحانه - إلى التوكل، بعد أن أعلمهم بكفالته لهم، وتقسيمه بينهم.

فأوجب - جل وعز - التوكل، وفرضه على الخلق.

فهل نفهم من ذلك: أن كل عمل للإنسان - سعيًا وراء رزقه الذى قسمه الله، وتولاه، يعتبر فى الإسلام نقصًا فى التوكل، وذنبًا؟

يجيب «المحاسبى» على هذا التساؤل بالنص قائلاً: «فالذى يجب على الناس فى جملتهم من التوكل المفترض عليهم: التصديق لله جل وعز، فيما أخبر من قسم، وضمان الكفاية، وكفالتها فى سياقة الأرزاق إليهم، واتصال الأقوات التى قسمها فى الأوقات التى وقتها، بتصديق تقوم الثقة به فى قلوبهم، وتنتفى به الشكوك عنهم، والشبهات، ويصفو به اليقين، وتثبت به حقائق العلم أنه الخالق الرازق، المحيى، المميت، المعطى، المانع، المتفرد بالأمر كله، فإذا صح هذا العلم فى القلوب، وكان ثابتًا فى عقود الإيمان، تنطق به الألسنة إقرارًا منها بذلك لسيدها، وترجع إلى ذلك بالعلم عند تذكرها، وقع الاسم عليها بالتوكل.

وعلى أى حال، فإن عامة الناس، إذا خرجوا بالذكر فى وقت الطلب أذعنوا بالقلوب، والألسنة أنهم لا يصلون إلى شئ من ذلك بالحيلة، وأن الحركة غير زائدة لهم فى أنفسهم، ولا مُوصّلة لهم إلى الزيادة.

والعمل والسعى للرزق ليس سوى: حركات الطبع الذى عليه البنية، وهذا من خلق الله فى العباد وإن لم تزل حركات الطباع وما فى الخليقة من محبة الكثرة، وتعجيل الوقت، والتسبب إليه بالأسباب فلم يزل الله سبحانه عنهم اسم «التوكل».

لأن ما فى الطباع من الحركة لا يخرجهم مما أوجبنا من التصديق لهم، لأن الله لم يستعبدهم بإزالتها وإنما استعبدهم بإقامة الطاعة، وأخذ الشئ من حيث أباح أخذه.

أما ما حرمه الله على العبد من الحركة، فهو التعدى لما أمر الله والتجاوز

لحدوده، وذلك أن الله سبحانه لما فرض التوكل على خلقه، وأباح لهم الحركة فى ذلك، ولما غيب عنهم التفرس من محبة تعجيله، حدَّد للخلق حدودًا فى الحركة، وفرض عليهم فروضًا أحكمها.

فإن خالفوا ذلك ثبتت عليهم بخلافه الحجة. فمن كانت حركاته فى طلب الرزق، على ما وصفنا، كان لله جل وعز بذلك مطيعًا، محمودًا عند أهل العلم، ولكن هناك من مراتب «الحركة» الإنسانية ما هو «أرفع فى الدرجة، وأعلى فى الرتبة» فإن السعى للرزق أمر حلال، ومحمود، ولكن السعى من أجله مع إحكام فرض التوكل فى أصله، والزيادة فى العمل بالمعرفة لله، ومع طهارة القلب وإدامة الذكر، وكثرة التقرب إلى الله بالنوافل. . . فذلك هو حقيقة التوكل ومحكمه، والتعالى فى ذروة ما أقيم فيه الأنبياء والصديقون وخواص المؤمنين.

أما الدلائل على أن الحركة فى طلب الرزق أمر حلال محمود، فهى كثيرة، وفى وجوه عديدة، ونجدها فى القرآن والحديث وسنة النبى ﷺ وسير الصحابة.

ففى القرآن نرى مثلاً: ﴿**رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [النور: ٣٧]. وفى الحديث: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم**» ويقول الرسول ﷺ عن نفسه:

«**كنت أرعى الغنم لأهل مكة بالقراريط**».

وفى القرآن قصص لأنبياء كانوا يحترفون مهنًا، منهم «موسى» و «داود».

ومن الحديث «**أطيب ما أكل المؤمن من كسبه**».

وفى حديث يقول عنه «المحاسبى» إنه:

لا يدفعه أهل العلم والنقل ولا أعلمهم يختلفون فيه» أما الدلائل المستخلصة من سير الصحابة، فيأتى بها «المحاسبى» بعد فصل طويل فى امتداح أخلاقهم، ويبدأ كعادته بذكر الخلفاء الأربعة الأول.

فقد كان من «أبى بكر» لما استخلف:

إن رأى الكسب على عياله أفضل الأعمال، وأوصل القربة وأعلى الطاعة فمضى إلى السوق مكتسبًا عليهم، فأدركه أصحاب رسول الله ﷺ، وكلموه فى ذلك ثم فرضوا له فرضًا رضى به، وإنما كان ذلك الرضى منه حتى يفرغ لأمور المسلمين، ويولى أمتهم كل عنايته. وكذلك كان «عمر بن الخطاب» إذ رأى بعد استخلافه أنه لم يعد يجد من الوقت ما يسمح له بالكسب إلا إذا أهمل الأمانة التى وقعت عليه، فكان يأخذ ما يعفه بقوله.

ثوبين للشتاء والقيظ، وظهرًا أحج عليه، وقوت رجل من قريش ليس بأوضعهم ولا بأرفعهم ولكنه كان مع ذلك يتساءل.

والله ما أدرى أيحل لى أم لا؟

وقد سار «عثمان» و «على» من بعده على نهج «أبى بكر» و «عمر».

ويروى «المحاسبى» بعد ذلك قصة «عبد الرحمن بن عوف» إذ آخى النبى ﷺ بينه وبين «سعد بن الربيع» عرض «سعد» على «عبد الرحمن» نصف ما يملك، وكان مال «سعد»، المال الصامت، الذى يرغب فى مثله، ولكن «ابن عوف» رفض قائلاً: لا حاجة لى بذلك، دلّنى على السوق. ومضى إلى السوق متكسبًا على نفسه، وذلك لما عند «عبد الرحمن» من فضل الكسب، وفضل الحركة لطلب الثواب.

وكذلك يروى عن النبى ﷺ: **«أفضل ما أكل الرجل من كسبه»**.

فآثر «عبد الرحمن» الكسب، على مال طيب، عرض عليه من غير مسألة، ولا إشراف من نفس.

تلك هى الأدلة التى يسوقها «المحاسبى»، وقد استخلصها من الكتاب والسنة، وفعل أكابر أصحاب رسول الله ﷺ.

ويختم حديثه عنها بقوله: والأخبار فى هذا والاحتجاج بها كثيرة.

وفيما أوردنا وذكرنا من ذلك كفاية إن شاء الله، والحركة للكسب.

إذن. ليست حرامًا إنها حلال، بل هى فرض، على العباد.

«المحاسبى» فى كتابه «رسالة المسترشدين» يوصى المؤمن بألا يجعل:

نفسه قط عالة على الآخرين. وذلك أن العبد إذا جعل نفسه فى وصاية غيره فقد حريته فى الدعوة إلى الحق، متنزهًا عن الرياء.

وفى وصاياه الخاصة بالسلوك اليومى للعبد، فى مختلف مؤلفاته، يفرد «المحاسبى» مكانًا للكسب والعمل.

ففى كتاب «الرعاية» يحدثنا مطولا عن العمل الذى يحبه الله من العبد، وفى كتاب: «المسائل فى الزهد» يذكر الحديث التالى للرسول ﷺ:

«الساعى على الأرملة، والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، القائم ليله، والصائم نهاره» ويقول «المحاسبى»:

فأفضل الأعمال لكل أهل زمان ما كانت عليه الأوائل من تعليم السنن والعطف على أهل العدم، لأن الله الغنى الحميد لا ينتفع بطاعة ولا تضره معصية، وإنما أمرك بطاعته لينفعك، فأحب الأشياء إليه من طاعته ما عاد نفعه على غيرك. بل إن السعى للرزق فرض على المؤمن فى كثير من الأحيان، وتركه ذنب كالسعى فى رزق الأب والأم، والزوجة، والأولاد المعوزين، ألم يقل النبى ﷺ: **«كفى بالمرء شراً أن يضيع من يعول؟»**.

ويعلق «المحاسبى» على هذا الحديث قائلاً:

ولا يكون قول النبى ﷺ ذلك، وهو لا يجب عليه عيلتهم، ولا حينما تكون عيلتهم تطوعًا منه يتطوع به، لأن الشر بلاء واقع، وعقوبة نازلة، والله جل ثناؤه لا يعاقب على ترك ما لا يجب.

وعلى أى حال، فلم يختلف المسلمون فى أن مثل هذا السعى واجب عليهم.. والمحاسبى لا يكتفى بأن يسوق الأدلة والدفاع عن هذا الرأى، وإنما يقوم بنقد من

يحرمون الكسب. . فيقول بأن هناك أقوامًا يزعمون أن السعى للرزق يتعارض من التوكل، وهم فى الواقع إنما جهلوا حقيقة السنة، وسير الأنبياء فى كل زمان مما يرويه لنا القرآن. .

فمن ذلك ما زعم «شقيق»، وذلك أنه قال:

لما ضمن الله تعالى الرزق والكفاية كانت الحركة شكًا فيما ضمن فحمل الأمر فى ذلك على رأيه، فخالف الكتاب والسنة، وما عليه أكابر أصحاب رسول الله ﷺ وجلة التابعين من بعدهم. .

ويتابع المحاسبى نقده للفرق الأخرى القائلة بعدم التكسب، وذلك بأسلوب غاية فى التشويق، معتمدًا على الكثير من الأدلة والبراهين غير تلك التى ذكرناها فيما سبق، ولذلك لا نرى أن هناك أى مجال للاختلاف حول آراء المحاسبى فيما يتعلق بالكسب.

وكتابه «المكاسب» الذى اعتمدنا عليه أساسًا فى بحثنا قد ألف فى فترة متأخرة من عمره، بعد بلوغه الرابعة والخمسين. .

فهو - إذن - يعبر عن آرائه فى فترة النضوج، بل يمكن القول إن الآراء التى ضمنها هذا الكتاب هى آراؤه النهائية فى الموضوع.

وما سبق من العرض يتعلق كله بالكسب فى الأرزاق الضرورية للحياة. .

ولنحاول الآن النظر فيما إذا كانت الحركة عامة - أو الحذر أو اليقظة أو التدبير - يتعارض شئ منها مع «التوكل».

والمسألة هى مسألة الكسب نفسها، وإن كانت مسألة الكسب أكثر تعقيدًا. . فمن ناحية نجد الإرادة الإلهية الخالدة بما قدرته من مصير للإنسان لا مغير له، ومن الجانب الآخر نجد الحركة والعمل من أجل إصلاح ظروف الحياة الإنسانية، ومن أجل مجانبة الشر.

ولا نريد الإطالة فى شرح موقف المحاسبى، ولا نحتاج إلى ذلك، فقد كانت حياته كلها سعيًا إلى إصلاح الإنسان، ومحاولة لتجنيبه الشر والنجاة منه، ومؤلفاته بأكملها تعبر فى قوة عن هذا الموقف.

ولنكتف بذكر بعض النصوص ذات المغزى الواضح من كتابه «الرعاية» يدلنا فيها على المبدأ الذى يحكم موقفه من مثل هذه المسائل عامة.

وفى هذا النص يتحدث «المحاسبى» عن «إبليس»، وينبه القارئ إلى أن «إبليس» من عناصر الشر التى تدفع إلى ارتكاب الذنوب، ويحذر منه، ثم يتحدث عن قوم من أهل الشام يزعمون أن الحذر من إبليس لا يصح..

فالحذر لغير الله عز وجل نقص من اليقين والتوكل، فالأولى الثقة بالله عز وجل واليقين، لأنه لا ضار ولا نافع غيره..

ويرد «المحاسبى» على هذا القول بأنه غلط، فالعبد لا يحذر «إبليس» إلا لأن الله أمره بذلك، والحذر من «إبليس» لا يكون خوفًا منه، فهو لا يغير مما أراده الله شيئًا، وإنما يكون واجبًا طاعة لله، واتباعًا لأمره فيمن أمر بالحذر منه..

أجل، بل إن الأمر الإلهى بذلك نعمة على العبد وعون له.

ألم يحذر النبى ﷺ بأمر ربه من أشياء أقرب إلى البشر من «إبليس»؟

وهل كان نقصًا فى التوكل أن أطاع النبى كلام الله، إذ أمره بأخذ حذره من العدو، وبصلاة الخوف فى الحرب؟

وهل كان نقصًا منه فى التوكل أن قام بحفر الخندق.

إن اليقين ليعمر القلب بأن الله خالق كل شئ، ومحرك كل شئ ولكنه أمر بأمور واجبة، وتركها بزعم أنها نقص فى التوكل عليه ليس سوى مخالفة لأمره.

فالطاعة - إذن - هى السبيل الصحيح:

وناقص اليقين من ضيع أمره إرادة كمال اليقين..

أما التعلق بالأسباب والعلل وعدم النظر إلى غيرها فذلك الغلط الذى يجب على المؤمن مجانبته. .

«كيف عرفت عبد الواحد يحيى»!!

«رينيه چينو»

إنى لأذكر ذلك اليوم، المشمس الجميل، من شهر يونيو سنة ألف وتسعمائة وأربعين، فقد صحوت من نومى مبكرًا، أتأهب لخوض غمار معركة علمية هى: مناقشة رسالة الدكتوراه، فى جامعة «السربون»، سرت فى طريقى، ميممًا شطر الجامعة، وكنت أينما التفت، لا أجد إلا وجوهًا يجللها الوجوم، ونفوسًا يعروها الذعر، ويطاردها الخوف: فقد كان «الألمان» يحثون الخطى، إلى قلب «باريس»، ويدركون فى عنف، كل ما يعترضهم من قلاع وحصون، ولكننى كنت مشغولا عن هذا كله بما يتردد فى نفسى، ويجول بذهنى من اعتراضات ستلقى، ونقد سيوجه، ووصلت إلى فناء السربون، فإذا بى أجد صديقى «بول ريفوليتى» - وهو من الروس البيض، الذين هاجروا إلى باريس - ينتظرنى، وبيده كتاب هو «صوفية دانت» وطلب إلى أن أوصله إلى الشيخ «عبد الواحد يحيى» فى مصر: إذ كان من المقرر عندى أن أسافر غداة ذلك اليوم الذى تناقش فيه رسالتى، حاولت أن أعرف من صديقى من هو الشيخ «عبد الواحد يحيى»، فآثر الصمت متعمدًا.

العودة إلى القاهرة

وانتهت المناقشة، ومرت الأيام بخيرها وشرها، وحلوها، ومرها، ووصلت فى النهاية إلى القاهرة، ولم يكد يستقر بى المقام فيها، حتى يممت شطر ضاحية «الدقى» باحثًا عن الشيخ «عبد الواحد»، وفى شارع «نوال» (فيلا فاطمة) طرقت الباب: فأطلت الخادم التى أعطيتها الكتاب، وطلبت إليها أن تستأذن فى مقابلة

الشيخ، ثم وقفت أنتظر الإذن بالـدخول، فإذا بى أجد الخادم مقـبلة نحوى وبيدها مقعد من الخـشب عليه مسحة الخشـونة والشظف، وتطلب إلى أن أنتظر هنيهة من الزمن.

وجلست أمام الباب فى الشارع، أنتظر الدقائق تمر، والانتظار يطول، أرى الخادم مقبلة فأهم للدخول، ولكنها تطلب منى أن أنصـرف اليوم، غير مطرود، وأحضر فى الغد، فى الساعة الحـادية عشرة فأنصرف متراخيًـا، وفى نفسى دهشة، وعلى وجهى شئ من طابع الخـجل، ومع ذلك فـقـد أثارت هذه الحادثة رغـبـتى فى أن أرى هذا الشيخ، الذى يضع الكرسـى فى الشارع للزائزين، والذى يأمرهم بالانصـراف اليوم، ليحضروا إليه فى الغد.

وحضرت من الغد، فى الموعد المضروب، وكنت دقـيقًا كالساعة، وطرقت الباب وفى قلبى إشفاق وفى نفسى تطلع إلى الدخول، ولم يكن حظى فى هذا اليوم بأسعد منه فى اليوم السـابق، فقد صُرفت ولكن لا إلى موعـد يبعث فى النفس الأمل، بل أبلغت عن لسانه بأن أكتب إليه ما أريد وهو يتولى الرد على ما أحب.

وانصرفت بعد أن أضـعت يومين فى محاولة لقائه، لم أكتب إليـه، وفيم أكتب إليه؟.. ومرت الأيام ولم يزل من نفسى هذا التساؤل...

من هو هذا الشيخ «عبد الواحد يحيى»؟

وفى يوم من الأيام كنت أزور «مسيو دى كومنين» مدير البعـثة العلمانية الفرنسية بمصر، وهو شـخص له خطره وأثره ومكانته فى الأوسـاط المصرية: وجـرى الحديث على العادة فى فنونه وشئـونه: وإذا به يسألنى هل أعرف «رينيه جـينو»، فلما أجبت بالنفى، أخذ يحدثنى عنه وعن اسمه الإسلامى:

«عبد الواحـد يحيى»، فحدثتـه بما كان بينى وبينه: فأخذ يـرجونى فى أن أعُود إلى محـاولة لقائه من جديد، وأن أسـتأذن له كذلك فى لقـائه، ولكننى مع ذلك لم أجد فى نفسى عزيمـة تدفعها إلى إعادة المحاولة، فـقد كان الكرسى الخشب لا يزال ماثلاً أمام ناظرى... ومرت الأيام أيضًا، وفى ذات يوم يحمل إلى البريد رسالة من

أستاذ جليل يقول فيها: إن «مسيو هيكتور ماديرو» وزير الأرجنتين المفوض فى مصر قد زاره بمكتبه، ورجاه فى أن يرشده إلى شخص يمكنه أن يتحدث معه عن الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى، ولم أجد من يصلح لهذه المهمة سواك،وطلب إلى أن أقابله والتقيت بالوزير، فكان أول ما يستفسر عنه: أتعرف «رينيه جينو»؟ ومر بذهنى مرة أخرى الكتاب والكرسى الخشبى وحديث «مسيودى كومنين»، وذكرت كل ذلك للوزير، وقال الوزير: أنك قد وصلت إلى نقطة حاسمة، هى معرفة بيته، وفى هذا نصر عظيم، إذ أن الصحفيين الفرنسيين والسويسريين، وغيرهم يأتون إلى مصر، فيجعلون من بعض مهامهم البحث عنه، ويتجهون أول ما يتجهون نحو حى الأزهر، وحى «سيدنا الحسين» أو السيدة «زينب» ولكنهم لا يعثرون له على أثر، فيعودون وفى نفوسهم حسرة، لأنهم لم يقضوا وطرًا شهيًّا من زيارة مصر.

وصح منا العزم ذات يوم، أنا «ومسيو ماديرو»، على أن نخترق الحجاب المضروب بيننا وبين الشيخ «عبد الواحد»...

لا أزال أذكر ذلك اليوم، وكان يوم أحد، حيث وقفنا أمام باب(فيلا فاطمة) ندق الجرس، وبعد برهة إذا شيخ طويل القامة، يكاد وجهه يضئ نورًا، عليه سمت المهابة، وطابع الوقار والجلال، تشع عيناه ذكاء وتنطق قسماته بالصلاح والتقى، إذ بهذا الشخ يفتح الباب بنفسه، ويقف أمامنا وجهًا لوجه: فألقينا إليه بالسلام، فرد التحية، ثم سألنا عن مقصدنا فأبلغه الوزير سلام أحد أصدقائه، فما إن سمع اسم صديقه حتى أذن لنا بالدخول، ودخلنا والتزم الشيخ الصمت، وقد كان من الممكن أن يكون الموقف حرجًا، لولا دبلوماسية الوزير، الذى أخذ يتحدث ويتحدث، ذاكرًا آراء الشيخ «عبد الواحد»، مثنيًا عليها مشيرًا إلى دقتها، كل ذلك والشيخ «عبد الواحد» صامت لا يكاد ينبس ببنت شفة، وانتهت الجلسة، وطلبنا إليه أن يسمح لنا بأن نعود لزيارته مرة أخرى: فأذن فى تلطف وفى رقة.

وحين عدنا إلى المفوضية بعد لقائه، قال الوزير: لعقيلته متبسطًا:

لقد قابلنا اليوم شخصية هامة جداً: فمن تظنين؟

- وزير الخارجية؟

- أعظم.

- رئيس الوزراء؟

- أعظم.

- الملك؟

- أعظم.

- ربنا؟

- إنه على كل حال شخصية إلهية، إنه «رينيه جينو».

فقالت في دهشة واستغراب: أحقًّا؟ يا لكما من سعيدين، ولكنها ما لبثت أن ثارت ثورة عارمة: لم لم تأخذاني معكما؟، واتجهت إلى زوجها قائلة: أنت تعلم أني في شوق شديد لرؤيته، فلم لم ترع هذا الشعور؟ وو...

وعدنا وتكررت الزيارة، وتحدث الشيخ «عبد الواحد» وأفاض في الحديث.

وذكر لنا أن عزلته هذه إنما هي عزلة بالنسبة للمتطفلين، الذين لا يرغبون إلا في إضاعة الوقت بالأحاديث الشخصية التافهة، ولكنه وقد رأى فينا رغبة صادقة في المعرفة، فليس بيننا وبينه - إذن - حجاب.

واستطعنا بعد ذلك أن نخرجه من وكره، وأن نصحبه إلى مسجد السلطان «أبي العلا» في الليلة الكبيرة من مولده، وجلسنا في حلقة من حلقات الذكر، فأخذ يهمهم في نفسه ويهتز، ثم أخذ كلامه يبين.

واهتزازه يشتد: وإذا به يذكر مع الذاكرين في نبرة واضحة، وفي هزة رتيبة، ثم إذا به ينغمس في الذكر ويستغرق، ولم أكد أنبهه بعد فترة حتى انتفض انتفاضة قوية، خلت أنها انتفاضة العائد من آفاق قصيّة مجهولة.

وتتابعت الأيام وسافر الوزير ومات الشيخ «عبد الواحد»، ولم يبق فى نفسى سوى الذكريات الجميلة، ثم هيأ الله لى أن أطبع «المنقذ من الضلال» للإمام «الغزالى»، فقدمت له بمقدمة فى منطق التصوف جعلت من بعض فصولها تلخيصًا لمقال عن التصوف، بقلم الشيخ «عبد الواحد». وقد نال هذا الفصل استحسانًا كثيرًا، لدى القراء، فشجعنى ذلك على أن أستفيض نوعًا ما فى دراسة الشيخ فألفت كتابًا صغير الحجم عنه، ضمنته فيما بعد فى كتاب «المدرسة الشاذلية» وذلك أن الشيخ رحمه الله كان شاذليًّا.

الفصل الخامس

التجربة الكبرى

تجربتى فى الحياة

وانتهت مرحلة التعليم بفرنسا وقد كتبت عنها ما يشبه التقييم لها، كتبت عنها مبينًا الأثر الذى تركته فى نفسى لأول عهدى بها ثم مبينًا ما كان بعد ذلك ثم وضحت النتيجة الموفقة التى انتهيت إليها فى نهاية حياتى بها: كتبت كل ذلك بعنوان: «التجربة الكبرى»

وأقصد «بالتجربة الكبرى»: «تجربة الهداية»

إن الله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى:

«يا عبادى كلكم ضال إلاّ من هديته. فاستهدونى أهدكم».

ويقول سبحانه لرسوله الكريم:

﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص: ٥٦]. ونحن نمر بأمثال هذا الحديث الشريف، وهذه الآية القرآنية الكريمة فلا نكاد نعيرهما التفاتًا!

وما من شك فى أن الكثير من الناس يسيرون فى الحياة حتى تنتهى بهم، فلا يثيرهم، ولا يسترعى انتباههم أمثال هذه النصوص، ومن الناس من تشد هذه النصوص انتباههم فى قوة لأنهم عاشوا حياة تتصل اتصالاً وثيقًا بها!

إنهم يقفون طويلا مرددين مع رسول الله ﷺ - فيما رواه الترمذى: عن أم سلمة أنه كان دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندها:

«يا مقلِّب القلوب، ثبت قلبى على دينك».

ومعه ﷺ فى قوله - فيما رواه الإمام مسلم:

«اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك».

وكنت أنا أحد هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله يضرعون إليه بهذا الدعاء، وأحب أن أسير مع الأمر من ابتدائه.

نشأت[١] فى أسرة تتسم فى الظاهر والباطن بالتدين، وكان والدى رحمه الله يفرض جو التدين فى إرادة لا تلين!

لقد تعلم فى الأزهر، ثم استقر به المقام فى القرية، وكان معنيًّا بكل صغيرة وكبيرة من فروض الدين، وسنة رسول الله ﷺ ، وما كان يجد فى ذلك مقاومة، ولا معارضة، فقد كانت والدتى رحمها الله تسير على غراره، وتتبع هواه، فتسير فى تياره.

وحفظتُ القرآن الكريم فى «كتّاب» القرية، ثم دخلت الأزهر، وكانت أمورى فى قراءتى، وفى أفكارى تسير فى الجو العادى التقليدى. ثم كانت النقلة المفاجئة إلى فرنسا.

ومن أول يوم حلت فيه قدماى أرض فرنسا، بدأت المفاهيم والمبادئ عندى تأخذ مجراها فى مختبر النقد والتفكير ولكنها كانت فى صورة هينة سهلة، بل يمكن أن أقول: إنها لذيذة، . ومن أمثلة هذه الأمور الهينة أنى رأيت النشاط يدب فى جميع مجالات الحياة، ورأيت السرعة، وحب السرعة، والحرص على السرعة فى كل مجال، وفى كل مكان.

لقد رأيت الفتيات يمشين بسرعة، ورأيتهن يتحدثن فى سرعة. وجال فى ذهنى ما كنا نقرؤه عن وصف المرأة الجميلة، وأن من سمات جمالها ما يقوله الشاعر عن مشيتها وعن حديثها:

«مشى القطاة و نطقها إيماء»

وأخذت أوازن بين مفاهيم الشعراء القدماء فى الجمال، ومقاييسهم فيه، فى المشى والحديث وغيرهما، وبين ما أرى وأسمع، واهتزت نوعًا ما المقاييس القديمة ورأيت الرجال أكثر سرعة، وأكثر نشاطًا وحركة، وبدت الحياة وكأنها سرعة ونشاط،

(١) أعتذر للقارئ عما وقع فى هذه الكلمة من تكرار طفيف لما سبق ولعله - فى إيجازه الموجز - يساعد على إيضاح ما أحببت أن أعرف به.

وقفز، وابتعاد فى كل ثانية عن الماضى واستئناف فى كل لحظة للمستقبل، وتجديد دائم لا يهدأ أو لا يفتر قط، وتذكرت عند ذلك وصف سيدنا عمر من أنه، كان إذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وإذا تكلم أسمع.

ونعمت فى اللحظات الأولى من وصولى بهذا الذوق الراقى فى كل شئ، وهذه النظافة التى تجدها أينما تسير: فى الشارع، فى محلات البيع، على وجوه الأطفال، وعلى الملابس عند الكبار، وعند الصغار على السواء وبهرتنى الحضارة الأوربية فى مظهرها هذا الخارجى الذى يتمثل فى النشاط والنظافة والذوق.

وكان هذا الانبهار يجعلنى أعود إلى المفاهيم الإسلامية فى النظافة وفى الجمال وأستذكر:

«إن الله جميل يحب الجمال».

«إن الله طيب لا يقبل إلاّ طيبًا».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

وأتذكر هذا التراث الإسلامى الضخم، الذى يتصل بالنظافة والنشاط والذى يعيشه الغربيون فى صورة واقعية، فكانوا فى هذا كأنهم مسلمون مثاليين!

وأعود من الانبهار إلى الأسف، على ما عليه المسلمون فى هذه المجالات، مبتعدين عن الأوامر الإسلامية الصريحة.

ولكنى كنت أعود فأقول:

هذا المظهر الخارجى مادام مرتبطًا بالثقافة ودرجتها، ومادام الإسلام قد حث عليه فى قوة، ومادمنا آخذين بأسباب الثقافة فى عناية ظاهرة..

فإننا سنصل إلى ما نرضاه فيه، إن شاء الله. وكاد هذا أن يجعل المجال الظاهر من الحضارة الغربية فى تصورى ليس ببعيد المنال بالنسبة لنا نحن الشرقيين.

ودخلت الجامعة، وبدأت الدراسة فى علم الاجتماع و «علم النفس» ومادة «الأخلاق» «وتاريخ الأديان»، وكانت هذه المواد يتزعم دراستها وتدريسها الأساتذة اليهود، الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود!

وكانت هذه المواد كلها تسير فى تيار محدد، هو: أنها «علوم مجتمع» أى أنها لا تتقيد بوحى السماء، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع إلهى: فهى تدرس فى موضوعاتها على أنها ظواهر اجتماعية، وظواهر إنسانية.

وبدأنا فى الدراسة نسمع مختلف الآراء فى نشأة الدين ومختلف الآراء فى تفسير النبوة، وينتهى الأمر برأى الأستاذ فى الموضوع. وليس فى هذه الآراء على اختلافها وتعددها - ما يتجه إلى أن الدين وحى من السماء، أو أن النبى موصول الأسباب بالسماء، وإذا انتظرنا من الأستاذ أن يُصحح الوضع، فيدلى فى النهاية برأيه مثبتًا الألوهية، والنبوة، هادمًا للآراء الأخرى، واصفًا لها: بأنها ضلال..! إذا انتظرنا ذلك منه فإننا نكون واهمين فإنه واحد من هؤلاء العشرات من الأساتذة فى هذه المواد وما شابهها، المنغمسين فى تيار المادية.

لقد فسرت الجامعات الأوربية العلم على أنه القواعد التى تقوم على التجربة والملاحظة، والتزمت أن تفسر وأن تشرح «علم الاجتماع» «وعلم النفس». وجميع الظواهر فى الآفاق. وفى الأنفس على هذا الأساس، والتزمت ذلك أيضًا فى تاريخ الأديان.

وهذه العلوم بالذات وفروعها تتكاتف لتقود الإنسان متعاونة متساندة إلى الإلحاد.

إن للدين - فيما يزعمون - نشأة إنسانية، اجتماعية، وإن للخلق - فيما يرون - نشأة إنسانية اجتماعية، ولقد تواضع الناس على سلوك معين، سموه «فضيلة»، وعلى سلوك آخر سموه: «رذيلة»!

ودراسة الدين والأخلاق إذن تتجه إلى النشأة والمظاهر وعوامل التطور، وظواهر التطور... وليس للسماء فى الدراسة من نصيب، إلاّ وصف لظاهرة نشأت فى المجتمع!

وكل الظواهر والمظاهر فى هذه الدراسات اعتبارية نسبية متغيرة متبدلة لا تثبت على حال، ولا تستقر على وضع، لأنها فى كل يوم تتبدل حالاً بحال. !

وهذه الأفكار تتكرر فى هذه المواد: تسمعها فى «علم الاجتماع»، وتسمعها فى «علم النفس». وتسمعها فى دراسة مادة «الأخلاق»، وتسمعها فى دراسة «تاريخ الأديان»، وتسمعها فى دراسة العلوم المتفرعة من كل ذلك. !

والشاب الذى انتقل من الأقسام الثانوية إلى الجامعة يتأثر بأستاذه.

فإذا كان الأساتذة متكاتفين على هدم القيم الثابتة، والمثل العليا التى يقررها الدين، وتقررها «الأخلاق».

فإن الطالب الذى يعيش فى أجواء تتعاون كلها على هدم عقائده ومثله وقيمه ينتهى به الأمر - فى الأغلب الأعم من الحالات - بأن تنهار هذه القيم فى شعوره.

ومن هنا كانت الظاهرة التى تجدها فى طلبة الجامعات فى أوربا من الاستخفاف بكثير من العقائد، وبكثير من القيم، وينتهى الطالب بالإلحاد، أو على أقل تقدير بالإيمان الكامن الذى لا فاعلية له، ولا تأثير فى سلوك الإنسان.

وكنت - من غير ماشك - أضيق بكل ما يجرى فى هذه الدراسات ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمنى التفكير فى قيمة آراء الأساتذة أنفسهم فى هذه المواد.

وبدأت أفصل بين عالمين من المعرفة: عالم الماديات كالطب والطبيعة والكيمياء، وهى أمور تحكمها التجربة ولا تتعارض مع الدين، ولا اختلاف فيها - وعالم التفكير المجرد فى الدين والأخلاق والمجتمع.

وأخذت أدرس فى أناة هذا الجانب الأخير من الزاوية التاريخية فوجدت أنه منذ أن بدأ التفكير، بدأ فى اللحظة الأولى الاختلاف فيه، وبدأ كل زعيم من زعمائه ينتقد الآخرين فى عصره، وكل مفكرى عصر ينتقدون المفكرين فى العصر السابق عليه... وهكذا الأمر !

وما من شك فى أن هؤلاء الأساتذة الذين يدرسون لنا ينتقد بعضهم بعضًا، فى آرائهم، ويخطئ بعضهم بعضًا، كما ينتقدون السابقين عليهم ويخطئونهم، وسيصنع من بعدهم صنيعهم فيوجهون إليهم النقد ويخطئونهم، وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها !

لقد أخذ «دور كايم» اليهودى يعمل بمعاول هدامة فى كل القيم، والمفاهيم الدينية، والأخلاقية، وأخذ تلميذه الأكبر اليهودى «ليفى بروهل» ينهج منهجه، ويسير على طريقه فى «علم الاجتماع»، وفى «علم الأخلاق».

وكتاب «ليفى بروهل»: «الأخلاق وعلم العادات» مثل واضح لهذا النوع من هدم القيم. ومحاولة للقضاء على كل مثل !

فكرت إذن فى اختلاف الآراء، أو فى هدم بعضها بعضًا فى مواجهة كل ما يقوله الأساتذة.

وكنت أقول فى نفسى - فى مواجهة كل أستاذ - سيهدمك المعاصرون لك - وسيهدمك الذين يأتون من بعدك !

ولكنى فى مواجهة كل هذه الآراء الإلحادية - كنت أتشبث بيقين لا شك فيه.

كنت أقول فى نفسى: إذا كانت الأخلاق نسبية، فهل يأتى الزمن الذى نعتقد فيه: أن الصدق رذيلة، أو أن الشهامة شر أو أن الشجاعة سوء، أو أن العفة جريمة... أو أن كذا، أو كذا..!

ثم أعود إلى نفسى فأقول: كلا !!!

وأتساءل من جديد فى مجال العقائد: هل يأتى اليوم الذى لا نقول فيه بوحدانية الله، أو لا نقول فيه بإرادته وعلمه؟!

وأعود إلى نفسى وأقول: كلا !

كنت أحاول دائمًا أردد أن هؤلاء القوم يسيرون فى طرق لا تنتهى إلى غاية... ما هدفهم من ذلك؟

وما كنت أجد الإجـابة على هذا السؤال آنئذ، لكنى عرفت فيـما بعد أن هذا هو المنهج اليهودى الذى رسـموه بعد تفكير طويل، والتزموا القـيام به بكل الوسائل، أو بكل الطرق، وهو منهج التشكيك فى القيم والمثل والعقائد والأخلاق !

يستخدمون هذا المنهج فى المجالات المختلفة لإفساد المجتمعات وتحللها أخلاقيًا، ودينيًا، ويضيفون إليه العمل على إثارة العمال على أصحاب رؤوس الأموال، وعلى إيجاد الضغائن والفتنة بين مختلف فـئات الشعوب، والثمرة التى يعملون - دائبين - على الوصول إليـها: أن يكون المجـتمع شاكًـا، مليئًـا بالفتن، وذلك سبـيلهم إلى السيطرة.

إن اليـهود يهـدفون من وراء كل ذلك إلى السيطرة على العـالم، وألا يقف فى وجههم قوة من إيمـان، أو قوة من خلق، ومن أجل ذلك تكاتفوا على أن تكون لهم الكلمـة الأولى فى الجامعـات، فى «علم الاجتـماع»، وفى «علم النفـس» وفى مادة «الأخلاق»، وفى «تاريخ الأديان».

ولم يكن من السـهل علىّ فى أثناء هذه الـدراسة الاسـتـمسـاك. الواثق بالقـيم والمثل، التى نشأت عليهـا، ولولا عون من الله سبحانه وتوفيق منـه، لصرت كواحد من هؤلاء الآلاف الذين يدرسـون فى الجامعـات الأوربية، ثم يخـرجون منهـا، وقد تحطمت فى نفوسهم المثل الدينية الكريمة.

وانتهيت من هذه الدراسـة. ثم كانت المرحلة التالية هى مـرحلة «الدكتوراه». وبعد تجارب هنا وهناك فى مجالات مختلفة، من الموضوعات، وبعد تردد بين هذا الموضـوع أو ذاك - هدانى الله - وله الحـمـد والمـنة - إلى مـوضـوع التـصـوف الإسلامى.

ولم يكن ذلك مصـادفة، وإنما هى هداية وتوفـيق من الله سبحـانه وتعالى وهى عناية أعجز عن شكر الله سبحانه وتعالى عليها ! وانغمست فى العنصر الأساسى فى موضوع الرسالة، وهو دراسة «الحارث بن أسد المحاسبى».

انغمست فى جو مجموعة من المخطوطات لهذا العالم الكبير، والصوفى المستنير، ورأيت أنه قد مرت به هو الآخر - فترة - من الضيق لاختلاف الآراء وتفرقها، الحيرة فى أيها الأحق وأيها الأصوب؟ ثم هداه الله سبحانه إلى الطريق الأقوم ! ووجدت فى جو «الحارث بن أسد المحاسبى» الهدوء والطمأنينة، ولكنه ليس الهدوء السلبى، أو الطمأنينة المعتزلة المنطوية على نفسها، ولكنه هدوء اليقين، وطمأنينة الثقة بما يعلم!

فقد ألقى بنفسه فى معترك المشاكل التى يثيرها المبتدعون والمنحرفون، وأخذ يصارع مناقشًا، ومجادلا وهاويًا ومرشدًا، متخذًا الأساس الأصيل، والمصدر الأول: القرآن والسنة، متخذًا ذلك مقياسًا وحاكما، متحكمًا فى كل ما يقال، أو يفعل.

وانتهيت من دراسة(الدكتوراه) وأنا أشعر شعورًا واضحًا بمنهج المسلم فى الحياة، وهو منهج: «الاتباع»!

إن رسول الله ﷺ يقول كلمة موجزة عن هذا المنهج هى إعجاز من الإعجاز، إنه ﷺ يقول:

«اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

وهى كلمة حق وصدق، ثرية بالمعانى، الطويلة، العريضة، يبرهن آخرها على أولها، والنهى فى وسطها يبرهن عليه أيضًا آخرها: أى اتبعوا فقد كفيتم، والكافى هو الله سبحانه وتعالى الذى أوحى المبادئ والأصول والقواعد، وطبق رسول الله ﷺ كل ذلك وبينه، فكان تطبيقه مقياسًا وبيانًا ومرجعًا يرجع إليه المختلفون!

«ولا تبتدعوا فقد كفيتم»: إن الذى يبتدع هو من لا كفاية له، ولكن الله سبحانه وتعالى بعد أن أكمل الدين، وأتم النعمة، فليس هناك من مجال، ولا من حاجة إلى الابتداع.

لقد كفانا الله ورسوله ﷺ كل ما أهمنا من أمر الدين!

وبعد أن وقر هذا المنهج فى شعورى، واستيقنته نفسى، أخذت أدعو إليه: كاتبًا، ومحاضرًا، ومدرسًا، ثم أخـرجت فيه كتابًا خاصًا هو كتاب: «التوحيد الخالص. أو الإسلام والعقل».

وما فرحت بظهـور كتاب من كتبى، مثل فـرحى يوم ظهر هذا الكتاب، لأنه هو خلاصة تجربتى فى حياتى الفكرية.

وكل ما كتبتـه عن التصوف، وعن الشخصيات الصوفيـة فإنما يسير فى فلك هذا المنهج: منهج الاتباع! وهذا المنهج يفترض.

مقاومة الغزو الفكرى:

والغزو الفكرى له مجالات مختلفة:

١- هناك الغزو الفكرى فى العـقائد، يتمثل فى كل هذا التـراث الضخم، الذى نقل إلى اللغة العربية فيما يتعلق بما وراء الطبـيعة، وهو تراث مختلف متعارض، بل متناقض وهو نتاج بشرى، يتسم بكل ما يتسم به النتاج البشرى من خطأ وضلال.

٢- والغـزو الفكرى فـى نظام المجتـمع: الذى يحـاول أن يفـرض علـينا نظام المجتمعات الأوربية!

وإذا نحن سرنا فى تيـاره، فإننا نصـبح ولا شخصـية لنا ولا ذاتية ونصـبح وقد فقدنا رسالتنـا التى كلفنا بتبليغها للناس ونشرها وهى رسـالة الإسلام التى من أجلها كانت الأمة الإسلامية. وبدونها تصبح الأمة الإسلامية ولا مبرر لها!

٣- والغزو الفكرى فى مجال التشريع:

وهذا الغزو الفكرى فى مجال التشريع توجد أسـسه وأصوله بصورة مشروعة فى مخـتلف الأقطار العربيـة، ممثلة فى كليات الحـقوق التى تتفق علـيها الدول وتعتـمد شهاداتها!

وكليات الحقوق هذه دراستها كلها غزو فـكرى، واستعمار فكرى ودراستها كلها أثر من آثار الاستعمار، التى لم تزل بعد أن زال الاستعمار.

وإذا كانت الأمم الواعية تحـاول جاهدة أن تتخلص من وصمة الاستعمـار بما فيها من شرور، ورجس، وآثام، فإن الـكثير من الدول العربية لم تحـاول أن تتخلص من وصمة الاستعمار الصارخة، الواضحة الممثلة فى هذه الكليات.

إن هذه الكليات تـخصص عشـرين ساعة فى الأسـبوع للقـوانين الأوربية - أى للفكر الأوربى - فى التشريع، وتفرض على الطالب أن يذاكره ويستوعبه أو يحفظه، ويتمثله، وينجح فيه فى الامتحان.

أى أنها تفـرض على الطالب أن يستعمـر فكره الأوربيون، فى مجال التـشريع، وأن يلغى ذاتيته الإسلامية فى هذا المجال، وأن يكون تابعًا للأوربيين فى هذا المجال، مقلدًا لهم، تجره عجلتهم، مستسلمًا لغزوهم.

وبينما تخصص هذه الكليات عشرين ساعة أسبوعيًا للفكر الأوربى فى التشريع، إذا بها تخصص ساعتين فقط للتشريع الإسلامى! ولو أن هذه الكليات فى «فرنسا» أو فى «إنجلترا» لما فعلت أكـثر من ذلك ومنهج الاتباع: إذن - يقتـضينا أن ننظر فى جد فى أمر هذه الكليات لتمثل الوطنية والإسلام والعروبة.

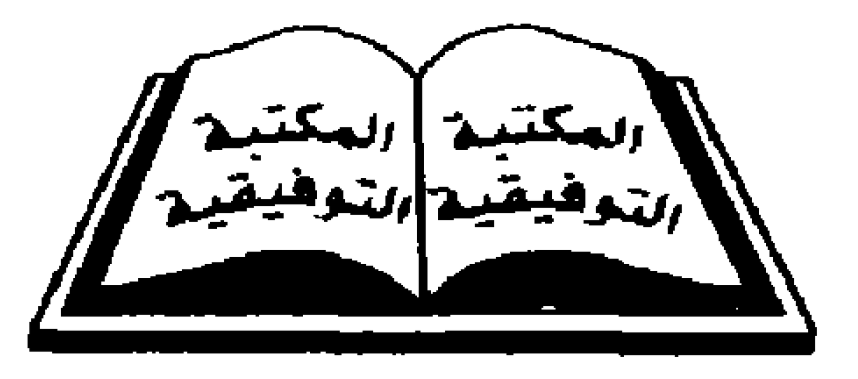
فإن منهج «الاتباع» هو الخلاصة الجوهرية لتـجاربى الخاصة بالطريق الذى ينبغى أن يسلكه المسلم فى حياته، وإذا سار فيه المسلم فردًا، أو سار فيه المسلمون مجتمعًا، فإن الله - سبحانه وتعالى - يكتب له الهـدوء والطمأنينة والسعادة لأنه يكون فى جو ربانى ملئ برعاية الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١]. هذا وبالله التوفيق.

يتلوه بإذن الله

الجزء الثانى

فهرس كتاب الحمد لله.. هذه حياتى



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥

مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية
مكتبة
التوفيقية

مكتبة
التوفيقية

مكتبة
التوفيقية

مكتبة
التوفيقية

